# بعض عظمة غاندي

د. عادل العوا



من بلد السحر والاسطورة والخيال . بلد الفن والحب والجمال، بلد الألف لون من ألوان العشق والهيام، بلد (المهابهاراتا) و (النيرافانا) و (تاج محل) ، بلد الحساب والطب والفلك والأدب والتوابل والعطور ، بلد (براهما) و (جوتاما بوذا) ، والجينية والاسلام والمسيحية ، وحتى اليهودية والمجوسية وسائر الملل والأهواء والنحل ، بلد منطقه فلسفة ، وفلسفته حياة ، وحياته عذوبة، وعذوبته رأفة بوحدة الكائنات في الأرض وفي السماء ، وحدة الوجود .

من بلد الشعر ( الفيدي ) والصلاةالتي يرددها الهندوس يوماًبعد يوم خلال أربعة آلاف عام ليستدروا القوة العقلية العليا ويعرفوا الطريق ، طريق الخلاص، من بلد ( اليوغا ) التي هي حرية وخلود ، نظر وممـــارسة ، وبعضها عشق فعلي واتصال رمزي بالمطلق ، مطلق الجنس ، الجمـال والحقيقة والصلاح ، آلهة الهند الأولى ، شعارها في ( ربك فيدا ) « النصر للحق وحده »،وبالحق تعمر الأرض ، وينتظم وجود البشر على أفضل وجه في قلب اللاوجود .

من بلد التـــدين العميق ، والفكر العريق العريق ، بلد اللاعنف الذي عرفته الهند والديانة الجينية قبل نيف وألفي عام ، وهي تدعو الى واجب احترام الحياة كل حياة ، حتى حياة النبات والحيوان والطيور ، وعدم إلحاق الاذى بأي كائن ، لأن الوجود بجوهره واحد ، ولا يفـــترق كائن عن آخر إلا بالاشتهاء والفردية ، وكلاهما عائق في معراج الغبطة والخلود .

من بلد الاســس الحضارية الأولى ، وبلد النضال والمقاومة السلبية والنصر والاستقـــلال ، من البلد الذي حل تناقضاته الكبرى بنمط أصيل من أنماط الاشتراكية ، نمط يؤلف بين أقدم التقاليد وأحـدث المبتكرات في عصر الذرة للقضاء على التخلف والمجاعة والإقطاع ، والسعي الى عمارة الأرض وإقامة السدود العظيمة ، والخزانات الكبيرة ، وتوليد الكهرباء ، وصناعةالسيارات والقاطرات والسفن والطائرات .

من هذا البلد العجيب ، من عالم الهند الحي الخالد ، يفوح في ختام هـذه السنة الدولية على درب التفاهم الانساني المنشود ، يفوح شذا ذكرى عظيمة لمولد إنسان عظيم ، ذكرى المائة الأولى لمولد ( موهانداس كرماشاند غاندي ) ، الملقب بالرغم منه بالمهاتما او الروح العظيم .

وصفه صديقه (رومان رولان) بأنه : « نصف إله زائل سيقود انسانية جديدة الى طريق جديدة » ، وقال أنشتاين : « سوف يتعذر على العالم بعد القعام ان يصدق ان مثل هذا الرجل كان يمشي بين الناس يوماً ما » . ولعل هذين الرأيين يعبران عما اعتاده الناس من تأليه العظماء ، فعل ( الحواريين ) بالسيد (المسيح). ولكن ( غاندي ) نفسه كان يعارض بشدة لقب ( المهاتما ) ذاته ، وقد أطلقه عليه مواطنوه ، ثم أقره الأوفياء من البشر كافة ، ومنحه المانحون فوق ذلك ألقاباً رائعة لايطالها الحصر . انه اكبر زعيم سياسي أنجبته الهند في العصر الحديث ، انه المصلح الاجتماعي ، والانسان الكبير ، والمواطن العالمي ، وبطل السلام ، وممثل روح الشرق العظيم . وقد أسماه ( شوقي ) بطل الهند ، العلم الفرد ، فهو نبي مثل ( كونفوشيوس ) :

قريب القول والفعل ، من المنتظر المهدي
شبيه الرسل في الذود عن الحق وفي الزهد
لقد علم بالحق وبالصبر وبالقصد
ونادى الشرق الأقصى فلباه من اللحد
وجاء الأنفس المرضى ، فداواها من الحقد
دعا الهندوس والاسلام للالفة والود
بسحر من قوى الروح حوى السيفين في غمد



ولو عرفه صاحبنا ( البيروني ) لأعجب بحكمته وجعلها مثلاً على المعقول المقبول ، اما ( ابن عربي ) المتصوف المسلم الذي ارتوى من رحيق الهند، وشرب كأس وحدة الوجود ، وأغرق في شطحاته الملحمية فانه لو عرفه لاعتبره تجلياً من تجليات الله ، ووجهاً من وجوه الحياة الأزلية الأبدية ، ولمزجه بنفسه وبالله، وقال عنه : انه قطب الزمان .

لكل زمان واحد هو عينه — واني ذاك الشخص في العصر أوحد

* * *

هذا غيض من فيض الألقاب العظيمة التي أطلقت على هذا الانسان العظيم ، وهي كلها ، من وجهات نظرها ، على حق جملة وتفاريق . ولكن قائمة الألقاب التي يسبغها الناس على عظمائهم قائمة متحولة ومفتوحة تتبدل بتبدل معطيات الثقافة في كل حين . فلندع ذلك إذن للمؤرخين . ولننظر في لباب العظمة ذاتها ، ولنسأل كيف يستحق هذا الانسان الفذ لقب عظيم في الناس ؟

تحدث الفيلسوف العلامة ( كارل يسبرز ) عن العظمة بوجه عام ، وقال : ان الناس في جميع الأزمان ينظرون الى بعض الرجال على انهم ، بسائق عظمتهم ، أشبه بكائنات اسطورية ، ونماذج . وإن من شأن العظمة انها تتجلى في بطولة المحارب ، وقوة المشرع ، ونجوع الخطط والمبتكرات ، وكشوف الشعر والفن ، وفي استنارة الذهن . وقــد كان ذلك كله يؤلف في البدء شيئاً واحداً . ولذا نجد في العظمة أصل الارتباط بالعمق الالهي ، وبالقرار الأخلاقي ، وبفحوى النظرة الكونية ، وجلاء المعرفة . وان الرجل العظيم هو أشبه بانعكاس الكون بأسره ، وهو مايمكن تأويله تأويلاً لانهائياً . انه مرآة الكون أو ممثــله ، وهو لايضيع في الجوانب السطحية ، وإنما يظهر في العالم ظهور شهاب خاطف ، إما على هيأة لمعان انجاز جميل ، أو اخفاق مأساوي ، أو سكون كسكون اللغز وسط الحركة الدائبــة التي تضطرم بها أعماق حياته ، فيغدو على هذا النحو تعبير المتعال .

إلا ان الكلام على فلسفة العظمة كلام يطول . وحسبنا في هذه الالماعة ان نقول : ان هذا التعريف للعظمة يصح أكثر مايصح على ( المهاتما ) العظيم . ان من أمـــارات العظمة الحقة انها ، مرآة الكون ، وانها مايمكن تأويله تأويلا

لا نهائياً . أليس ( غـاندى ) مرآة الكون في عصره ، وفي العصور اللاحقة ، وان من الممكن ان نجد في تأويل عظمته لانهاية التأويل ؟

لقد حسب ( يسبرز ) على جلال قدره ، ان العظماء كلهم فلاسفة ، وان الفلاسفة العظام الذين حققوا أقصى ما يستطيع انسان ان يحققه أربعة أشخاصهم : ( سقراط ) و ( بوذا ) و ( كونفوشيوس ) و ( يسوع ) . ولكننا نرفض هذا التحديد ، وننكر إغلاق باب العظمة حتى في ميدان الفلسفة بالاقتصار على من جاء من الفلاسفة الغابرين والمعاصرين . ولا يخـامرنا ريب في ان ( الروح العظيم ) فيلسوف شـرقي أيضاً من طراز ( سقراط ) و ( يسوع ) أو ( بوذا ) و ( كونفوشيوس ) وقد أنجب الشرق الأدنى والأقصى هؤلاء جميعاً .

لقد كان ( غاندي ) ، بوجه من أوجه الاعتبار ، فيلسوفاً معقداً حارت في تأويل حقيقته الالباب . ولد في اسرة طيبة وعاش مناضلا ، ومتقشفا ، وظل مثل ( سقراط ) محيا فلسفته ومارس افكاره ، وطفق مثـل ( يسوع ) يبشر الجماهير ويعلم المستضعفين ، ويأسو جراح المنبوذين في الهند ، ويدعوهم ( احباب الله ) ، كما دعا ( يسوع ) اتباعه ( ابناء الله ) . كانت حكمته مزيج (البوذية) في الرحمة والارهـاف و ( الكونفوشيوسية ) بالتخلق والتسامي ، وكان الى جانب ذلك مؤدباً وسياسياً مثل ( افلاطون ) و ( تولستوي ) واضرابهما مما لا ندخل في تفاصيل ايضاحه الآن . لقد اخفق ( افلاطون ) في مسعاه السياسي حين اراد اصلاح الحكام الطغاة ، وكاد ان يقتل مرتين . ونجح ( غاندي ) في مسعاه السياسي فقارع الاستعمار وعملاء الاستعمار كما نقول بلغة اليوم ، وكان عماد نجاحه اعتماده على الشعب المحب المريد ، ولكنه قتل بيد خارجي على ارادة الجمهور ، وقتله هو المأساة التي تقربه ايضاً من (سقراط) ومن ( السيد المسيح ) ، وقديماً كان

القتل ظلماً ووحشية لأنه يبتر امكانات القتيل ، ويقطع صلاته بالناس ويقصم دارة الحضارة بمنع الحوار .

لم يكن ( غاندي ) ، لحظة واحدة ، باحثاً نظرياً بعيداً عن الحياة ، وانما كان دائماً الانسان المرهف الروح الذي يحس بكرامة الانسان في كل مكان ويسعى عن طريق الكفاح الصامد الصامت الى استغلال الالم ، الم مواطنيه ، ليقلبه باللاعنف نصراً : « انني اتوقع ان اهزمكم بآلامي ». لقد آمن بسمو الحقيقة وبسمو الروح . واوجب على اتباعه ألا يمارسوا أي خداع حتى لوكان مرده خير البلاد ، فالحقيقة تفرض نفسها على كل كبير وصغير ، كما اوجب عليهم عدم ايذاء من يعتبرونهم ظالمين ، وفرض على المعلمين ميثاق الحقيقة وميثاق عدم القتل وميثاق العفة الجنسية ، وميثاق عدم الخوف . كانت امه تحذره اذا لمس المنبوذين في المدرسة بأنه لن ينجو من رجس لمسه اياهم إلا بلمس أحد المسلمين . ولكنه تجاوز هذا الاحتقار الظالم ودعا الى احترام الكرامة الانسانية لدى كل انسان .

لقد كان يعلم جماعات المصلين ، ويؤثر في الجماهير الهندية بالقول وبالقدوة ، القول الصادق ، والقدوة الصادقة ، على قدر سواء . ولكن شخصيته المعقدة اثارت بالطبع وساوس المنطقيين والجدليين ، فوجد بعضهم أنه بآن واحد يبدو نقياً وما كراً ، سياسياً وقديساً ، قروياً مخاتلا ، وفيلسوفاً ملهماً ، وقد اسماه ( نهرو ) الساحر ، واشتهر بأنه نبي اللاعنف ، وسلاحه صومه . والحق ان الديانة الجينية التي كان ينتمي اليها ترى ان الانتحار بالصوم حق للمؤمنين . وكان يلجأ الى الصوم كلما عجزت وسائل التأثير الاخرى عن حمل مواطنيه وحمل اعدائه على الاستجابة لرسالته . وكان هو يؤدب اقرانه ليسمو بهم ، ويزعزع في الوقت نفسه اركان الامبراطورية العجوز بهذا الصوم العقائدي الحاسم . ولعله كان يأمل أن

يوقظ لدى خصومه عنصراً انسانياً غافياً او غير منظور ، وقد صرح اكثر من باحث غربي بأن قوته ، اللاعنف ، كانت اقوى من قوة السلاح .

* * *

اعترف بأنني مازلت اتهيب الكلام على عظمة هذا الانسان العظيم . وكم وددت لو كنت اخصائياً بدراسته ، وانا واثق من انني سأزداد رهبة من جهلي كلما ازددت تعمقاً في المعرفة ورسوخاً في العلم . وما استطيع ان اعرب عنه في جميع الاحوال هو ايماني بهذه العظمة الرائعة ، وكيف لا يكون ( المهاتما ) عظيماً ، بعد أن قال وحقق ماقال : « على طالب الحق ان يكون اكثر تواضعاً من التراب ، فالناس قد يسحقون التراب باقدامهم ، ولكن طالب الحق يتواضع حتى يسحقه التراب . وفي هذه الحالة وحدها يستطيع ان يرى قبساً من نور الحق » .

ثم أليس ( المهاتما ) عظيما وقد قال وحقق ماقال : « لا اريد أن تكتنف الاسوار بيتي من كل جانب فتحجب عنه الهواء والنور ، بل اريد ان تهب ريح الثقافات عليه من كل بلاد الارض ، فلا يعوقها عائق ما أمكن ، لكنني ارفض ان تطيح بي ريح منها ، او أن اعيش في بيوت غيري متطفلاً أو سائلا أو عبداً » .

وأخيراً ، أليس ( المهاتما ) عظيما ، وقد حقق معجزة اللاعنف فكان من جديد رسول السلام المشرف ، وخصم الجبن والاستسلام وقد قال : « ان عقيدتي في عدم العنف هي انها قوة ايجابية الى اقصى حد ، وليس فيها مكان للجبناء أو للضعفاء . ومازال هناك أمل في ان يصبح الرجل العنيف يوماً ما مبرأ من العنف . اما الجبان فلا أمل له على الاطلاق . فاذا لم نعرف كيف نذود عن أنفسنا وعن نسائنا وعن بيوت عبادتنا بالقدرة على احتمال العذاب ، اي بعدم العنف ، فعلينا على الاقل اذا كنا رجالا ان نكون قادرين على الذود عن هؤلاء جميعاً : بالقتال » .

آمن ( غاندي ) بالمعلمين ، وآمن بالجمهور حين يصبح شعباً ، وآمن بالانفتاح الاصيل على جميع الثقافات ، آمن بالانسان ودعا كل مسؤول الى عدم

الاعتماد على القوة ، بل على الهيبة والجاه المستمد من الاخلاص وضرب المثل بالعفة والنزاهة وان امرءا مثله ، آمن بما آمن به ، لإنسان عظيم يدعو الى خير عظيم . فما المدنية إلا محبة الانسان ، وتعاون حر بين الناس .

أطلق ( ونستون تشرشل ) ، ولعله كان مداعباً او متفكهاً ، اسم « الفقير العاري » على عملاقنا الضخم المتدثر برداء المجد والخلود . ولست ادري ايهما ابقى ذكراً على مر الايام : السياسي الماهر البدين الذي كسب مع حلفائه حرباً عالمية كبرى ، ام الزاهد المفكر الصابر النحيل ، رجل الشرق الذي فاز بسر الحب ، وعاد بالكلمة الانسانية العليا ؟

# غاندي في الأدب العربي

د . عمر الدقاق



حين يتغلب المرء على فرديته ، وينكر ذاته ، ويقهر أنانيته ، وحين ينذر نفسه ، ويرخص روحه ، ويحتسب حياته في سبيل عقيدة يؤمن بها ومثل يعتنقها ، اذ ذاك يتسم بالسمة الانسانية . ذاك ما كانه غاندي . هوذا انسان، انسان لم يكن ينتمي الى الهند وحدها ، ولكنه تجسيد حي لما يضطرب في نفوس البشرية المعذبة من نزوع الى التحرر والكرامة والسلام .

لقد بلغ من انسانية هذا الرجل أنه كان يبدو للكثيرين من طبيعة متميزة ، وأنه يختلف عن سائر الناس ، وكأنه واحد من انبياء التوراة . وقد أشار انشتاين الى أن الأجيال القادمة قد تجد من الصعب عليها أن تصدق أن رجلا كهذا كان انسانا من لحم ودم ، يسعى على الأرض . على أن غاندي في بساطته المتناهية لم يتعد أن يكون رجلا ، كما نعتته أنديرا غاندي حين قالت عنه :

« في رأيي أن غاندي لم يكن مجموعة من الآراء والتعاليم الجافة بل رجلا يشع حياة ، رجلا يحرص على أن يذكرنا بأرفع المستويات التي يستطيع الانسان أن يبلغها ».

هذا الرجل الذي كان للانسانية كلها في أصالته وسلوكه وفي نضاله الفذ المتفرد كان في الوقت نفسه لشعبه ووطنه ، كان للهندوس والمسلمين ، كما كان للصعاليك والمنبوذين ، وكان أخيرا للشرق البائس وشعوبه المتلهفة على الحرية .

غاندي الذي ملأ الدنيا وشغل الناس طوال النصف الأول من قرننا العشرين كان له حيز كبير في ملحمة الكفاح العربي ، كما كان للعرب في تفكيره منزلة عالية . وقد لانرى في الأمر بدعاً اذا ما اوغلنا في حنايا الماضي واجتلينا في معالم التاريخ . فغاندي لم يكن الا حصيلة تفاعل عريق بين الهنود والعرب تعانقت خلاله حضاراتها كأحسن مايكون التعانق الحضاري بين الشعوب على الصعيد الانساني الرفيع .

ولعل الاسلام هو النافذة الواسعة التي أطل منها الشعب الهندي على رسالة العرب . ومع أن الوجود العربي الاسلامي قديم في الهند قدم الاسلام نفسه فان العصر الاسلامي في الهند كما يقول غوستاف لوبون : «يبدأ في القرن الحادي عشر وينتهي من الناحية السياسية في القرن الثامن عشر للميلاد . وهذا العصر عرف احسن مما عرف أي عصر جاء قبله بفضل مؤرخي المسلمين » (١) .

(١) حضارات الهند ، تعريب عادل زعيتر ٤١٦

ويحرص لوبون على توكيد الذات العربية في الحضارة الهندية باعتبارها رافدا كبيرا لتراث الهند ومدنيتها . وفي ذلك يقول : « ان تاريخ الحضارة الاسلامية في الهند انما هو بعث لتاريخ حضارة العرب . فسلمو الهند لم يدخلوا الى الهند بالحقيقة سوى حضارة العرب بعد أن تحولت بعض التحول في بلاد فارس ، بفعل الأزمنة والأمكنة . والمسلمون حين أدخلوا حضارة العرب الى الهند أدخلوا معها رغبة كبيرة في العلوم والآداب والفنون .. وطراز البناء الذي أتى به المغول الى الهند هو كديانتهم من أصل عربي كان قد تحول اليها حين مروره من بلاد فارس » .

واذا مارحنا نلتمس هذا التفاعل الفكري والتمازج الحضاري بين العرب والهنود تجلى لنا بصورته الزاهية في غاندي ، في تعاليمه وفي سلوكه ، وفي اقواله . ومن هذا القبيل ماذكره في خلال مراحل نضاله الشاق الصابر في جنوب افريقيا في مستهل حياته اذ قال (١) : « كان اتصالي ببعض الكلمات والعبارات العربية بادىء الأمر عن طريق الكلمات العربية المبثوثة في هذه اللغة الأوردية من خلال اتصالي السابق بأصدقائي المسلمين » . أما أصدقاؤه المسلمون فما كان اكثرهم ، وكان منهم رفاق الكفاح في افريقية وفي الهند على حد سواء . فالشيخ داود محمد من ابرز رجالات الجالية الهندية في جنوب افريقية وقد عانى السجن وحظي بإجلال غاندي حتى خصه بفصل من كتاب « قصة اللاعنف » عدد فيه مناقب كفاحه . كما خص بفصل آخر المجاهد الهندي احمد محمد كاتشاليا وقال عنه (٢) : « انا لم أعرف قط عمري كله ، سواء في جنوب افريقية او في الهند رجلا يفوق احمد محمد كاتشاليا شجاعة وثباتا . لقد ضحى بكل مايملك من اجل الجالية . انه مسلم حنيف ، كان ينظر الى الهندوس والمسلمين كمن لايفرق بين عينه اليمنى وعينه اليسرى » .

---

(١) قصة اللاعنف في جنوب افريقية . تعريب منير البعلبكي

(٢) قصة اللاعنف في جنوب افريقية ، ١٨

وقد دأب غاندي على ابراز الدور الطليعي لرفاق الكفاح من المسلمين كالإمام عبد القادر باوزير وشوكت علي واحمد بهايات ويوسف اسماعيل ميان وأبي الكلام آزاد ، فضلا عن المناضل الأفغاني عبد الغفار خان الذي لقبه الهنود بغاندي الحدود . أما ملازمة زعيمي المسلمين محمد علي جناح وشقيقه الأكبر لغاندي فكانت صفحة ناصعة تسجل ذروة مابلغته وحدة الهندوس والمسلمين ، وفي منزل (محمد علي) -صديق غاندي- آثر المهاتما ان يقوم بالتجربة القاسية ، يؤويه المسلمون ويعنى به اطباء مسلمون ، وقد قدم له المسلمون آخر طعام قبل الصوم وأول طعام قبل انقضائه وفقا لطقوس الديانة الهندوسية [1] . وفي مقابل ذلك يصور لنا غاندي جانبا آخر من هذه الحياة المثلى التي كانت تتجلى في التحام شطري الهند المسلم والهندوسي والتي كان المهاتما يتحرق تطلعا الى دوامها ، فيقول :

« عندما كان يهل شهر رمضان كنا نستشعر ان من واجبنا ان نشجع رفاقنا من الفتية المسلمين على الصوم ، بل كنا نطهو لهم الطعام ، ومشاركة لاخواننا المسلمين لم يكن اكثرنا يتناول غير وجبة واحدة في المساء» (٢) .

وقد ذكر فنسنت شيان احد كتاب سيرة غاندي : « أن غاندي كان طوال حياته ، غريزة وفطرة وتعمدا ، صديقا للمسلمين » وقد قال مرة في جنوب افريقية قبل عودته الى الهند بزمن طويل : ان الاختبار النهائي لـ ( ساتيا غراها ) -اللاعنف- سيكون من اجل الوحدة الهندوسية - الاسلامية » . (٣)

وكان غاندي شديد الاهتمام بمسألة الخلافة الاسلامية التي شغلت العرب والمسلمين حقبة من الزمان في اعقاب الحرب العالمية الأولى ، وكانت في الوقت

---

(١) المهاتما غاندي ، فنسنت شيان ٣٥٠

(٢) قصة اللاعنف ٣٨٣ .

(٣) المهاتما غاندي ، تعريب محمد عبد الهادي ٢١٩ .

نفسه معقد محادثات بين الهندوس والمسلمين . حتى أن غاندي نفسه توجه الى دلهي عام ١٩١٩ لحضور المؤتمر الاسلامي الذي دعي رسميا الى حضوره . فقد بدت آنذاك رغبة المسلمين شديدة في الحصول على تأييد غاندي وسائر الهندوس.

وفي إثر اعلان ( الساتيا غراها ) أي اللاعنف أمست اجتماعات الهنود في الترانسفال بجنوب افريقية حاشدة الى حد بعيد وكان أكبر اجتماع حاشد في إثر ذلك قد عقد بزعامة غاندي في صحن مسجد بريتوريا (١) .

وكان للقرآن العربي احترام لا حد له من قبل غاندي ، يتضح ذلك من قوله عندما كان في جنوب افريقية : « في مزرعة تولستوي كنت حريصاً على ان يتلو المسلمون القرآن » . (٢)

وقد تجلى اجلال غاندي للقرآن كتاب العرب ولمحمد نبي العرب في مناسبات قومية عديدة وبخاصة عندما كانت الفتن الطائفية تشب في الهند حتى لا تكاد تبقي ولا تذر ، فقد خطب في جموع المتخاصمين بتفاؤل وثقة : « اني اقول لكم ان النور قد سطع ولسوف يهدينا الى الطريق المستقيم. ان الرسل يعيشون ويموتون ولكن رسالاتهم كثيراً ما تثمر بعد قرون عديدة . أجل فكم كان عدد اتباع بوذا حين مات ، وكم كان اتباع محمد ..؟ لقد عاشت تعاليمها بعـد موتها ، لأن عقيدتها تقوم على الحق الأبدي » . (٣)

وبدافع من اصالة فكر غاندي وانسانيته كان لا يفتأ يجهر بتقديره لرسالة العرب التي تجلت في الاسلام ، واجداً في ذلك خير رافد لتعاليمه وحافز لثباته ، يقول: « تذكر ان رسول الله هاجر من مكة الى المدينة ، ومعه صديقه ابو بكر . وقد تعقبها

---

(١) قصة اللاعنف ١٨٢ .
(٢) المصدر السابق .
(٣) المهاتما غاندي الثائر ٥٤ .

نفر من الأعداء . وخاف أبو بكر لما قد يحدث لهما . فقال لرسول الله : انظر هذا العدد الكبير من أعدائنا الذين لحقوا بنا فاذا نفعل لو أنهم رأونا ؟ فأجابه رسول الله بقوله : ما بالك باثنين ، الله ثالثهما ؟ » (١) .

وأغلب الظن أن غاندي كان شديد اللهفة على لقاء العرب من كثب بعد أن عرف الكثير عنهم وعن حضارتهم وتراثهم وتاريخهم ودينهم في بلاده ومن خلال مؤثرات كثير من المسلمين الهنود . وعندما عنت له الفرصة في عام ١٩٣١ وهو متوجه الى اوربا لبحث قضية بلده نزل في شاطىء اليمن وخاطب مستقبليه من جماهير عدن الذين كانوا يرزحون هم والهنود تحت نير عدو غاشم واحد ، وكان مما قاله لهم : « ان هذه الجزيرة العظيمة جزيرة العرب التي ولد فيها محمد ، وبعث فيها الاسلام ، مثل حي على التسامح الديني وعلى انسانية الانسان » .

ومثل هذا التلازم بين العروبة والاسلام الذي نلمسه في كثير من عبارات غاندي ونصوصه كان في الواقع ولعله ما زال الى حد كبير حتى اليوم مألوفاً ايضاً في أذهان كثير من العرب المسلمين ، كما كان شائعاً في الوقت نفسه بين غالبية العرب غير المسلمين وغالبية المسلمين غير العرب .

وقد أشار المفكر الهندي ابو الحسن الندوي الى « ان المسلم ينظر الى العالم العربي كمهد للاسلام ومشرق نوره ، ومعقل للانسانية ، وموضع القيادة العالمية » (٢) . فقد كان من الطبيعي ان يشعر المسلم في الهند او في سواها برابطة نسب واشجة تشده الى العرب ، يتجلى ذلك في قول الفيلسوف الشاعر محمد اقبال :

أنا أعجمي الدن لكن خمرتي ... صنع الحجاز وروضها الفينان
ان كان لي نغم الهنود ولحنهم ... لكن هذا الصوت من عدنان

---

(١) الهند ، الكتاب السنوي ١٩٦٨ — ١٩٦٩ ص ٤٠
(٢) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ٢٤٥ .

وحين عبر غاندي قناة السويس عام ١٩٣١ حال المحتلون الانكليز بينه وبين النزول بأرض مصر ولقاء شعبها الذي كان يضطرم ثورة على زبانية الاستعمار، ومع ذلك كان هذا المرور حدثاً تاريخياً ينم على التجاوب العميق بين العرب والهنود وشعورهم القوي بوحدة المصير . لقد كان غاندي بطلاً شرقياً وجد فيه شعب مصر خصماً عنيداً للمستعمر ذلك العدو المشترك . وقد أعرب مصطفى النحاس رئيس الوفد المصري آنئذ عن هذه الروح التي كانت تسرى في جموع الأمة في كلمته الى غاندي قائلاً : « باسم مصر ، التي تجاهد من أجل حريتها واستقلالها أرحب في شخصكم العظيم بزعيم الهند العظيم ، الهند التي تحارب هي الاخرى لتحقق نفس الهدف » (١) . كما أعربت السيدة صفية زغلول قائدة اول مظاهرة للنساء في الوطن العربي إبان ثورة ١٩١٩ المصرية عن شعور مفعم بالاجلال تجاه الزعيم الشرقي الكبير(٢) .

واذا أردنا استجلاء حقيقة المشاعر العربية ومدى ما كانت تنطوي عليه من صدق تجاه الهند الثائرة وقائدها العظيم كان لابد لنا من استنطاق الأدب والشعر منه بوجه خاص . ولعل الشاعر احمد شوقي خير من كان يعكس مشاعر أمته من حيث انفعاله بآلامها ومطامحها وما عرف عنه من رصد حي لأحداثها . ان مجيء زعيم احتل اسمى منزلة في قلوب الشرقيين الى مصر لهو حدث تاريخي جدير بأن يحظى باهتمام شوقي فينظم قصيدة دالية تناهز الأربعين بيتا في هذا الطراز الفذ من الرجال :

| | |
|---|---|
| بني مصر ارفعوا الغار | وحيوا بطل الهند |
| وأدوا واجباً واقضوا | حقوق العلم الفرد |

وفي خلال هذه القصيدة يبرز شوقي عنصر الألم المشترك الذي وحد

(١) المهاتما غاندي الثائر ٤٣ .
(٢) المصدر السابق .

مشاعر الشعبين نحو الهدف الواحد وكان مبعث ذلك هو الاعجاب بزعامة غاندي ذلك المعلم الكبير :

أخـــوكم في المقاساة ... وعرك الموقف النكـد
وفي الموقعة الكــبرى ... وفي المطلب والجهـــد
وفي الجرح وفي الدمع ... وفي النفي من المهـد

ان الطائفية تلك العلة المزمنة التي استشرت في الهند استشراءها بين العرب كانت ايضاً في رأى شوقي من أبرز ملامح الرسالة الغاندية التي كان الشرق العربي يتحرق شوقا الى مثلها في ربوعه :

لقـــد عـــلمّم بالحـــق ... وبالصـــبر وبالقصد
وجاء الانفس المرضى ... فداواهـــا من الحقـــد
دعا الهندوس والاسلام ... للألفـــــة والـــود
بسحر من قوى الروح ... حوى السيفين في غمد
ســـلام حالب الشاة ... سلام غـــازل الـــبرد



لقد غدا غاندي في قلوب الملايين المستضعفة رمزاً للزعامة الشرقية في تحديها للغرب . هذه الروح الشرقية التي أخذت تنبعث بقوة لدى الجيل العربي في مطالع هذا القرن بسبب الهجمة الاستعمارية الشرسة على الوطن العربي والتي يمكن العودة بجذورها الى حقبة الحروب الصليبية أخذت تتجلى بين العرب على شكل شعور غامض بالتعاطف بينهم وبين شعوب أخرى مقهورة في هذا الشرق الكبير وحدت بين مشاعرها مواجع القيد فلم تعد تميز بين زعيم وزعيم من زعمائها ، فكانت تجد في كل وقفة متمردة شفاء لجراحها وثأراً لكرامتها . وعلى الرغم من أن النزعة الشرقية لم تبلغ منزلة الرابطة بين شعوب الشرق الا أنها كانت تشغل حيزاً كبيراً في اذهان العرب وذلك نتيجة للظروف التاريخية المشتركة التي أملاها الخطر المشترك الطارىء من جهة ، ثم ترجرج الأفكار والمفاهيم القومية من جهة أخرى . فجبران

خليل جبران الذي ينتمي الى لبنان ويدين بالمسيحية يحرص على أن يجعل لنفسه هوية شرقية اذ يقول : « انا شرقي ، ولي فخر بذلك . ومهما اقصتني الأيام عن بلادي، أظل شرقي الأخلاق ، سوري الأميال ، لبناني العواطف » . فالشرقية عنده عاطفة وطنية او قومية واسعة . وعلى هذا الغرار نجده يدافع عن الشرق بحرارة ويحمل على الغرب بقوة اذا يقول(١) :

« لا ، ليس الغربي أرقى من الشرقي ، ولا الشرقي أحط من الغربي » .

ولعل من المفارقات أيضاً أن غاندي نفسه لم يكن ليقيم مثل هذه الحدود بين الشرق والغرب فكان يتسامى عليها بروحه العظيم على الصعيد الانساني الأمثل فهو القائل(٢) : « لم تمر بي تجربة واحدة – خلال اقامتي في انكلترا وأوروبا ثلاثة اشهر – تجعلني أشعر حقاً بأن الشرق شرق والغرب غرب ، بل على العكس ، قد زدت اقتناعاً اكثر من أي وقت مضى بـــأن الطبيعة البشرية هي هي مهما اختلفت الظروف » . ولعل هذه العبارات بمثابة رد غير مباشر على الشاعر الامبراطوري كيبلنغ الذي اطلق قولته : « الشرق شرق ، والغرب غرب ، ولن يلتقيا » .



ومثل هذه الروح الشرقية الوادعة كانت تطل من حين الى آخر من خلال الأشعار اللاهبة والخطب الصاخبة التي كانت تملأ دنيا الأدب والسياسة في مواكبة الكفاح العربي العاثر . ففي اثر زيارة شاعر الهند طاغور لمدينة دمشق عام ١٩٢١ عبر عدد من الشعراء عن أجمل المشاعر تجاه الهند وزعيمها . وقد تجلت في قصيدة أديب التقي ( بين الشرق والغرب ) نفحة انسانية وادعة كأنما سرت اليه من روح الشاعر الهندي العظيم(٣) :

حنانك عهد الشرق هل انت راجع ... بنا يلبغي أم ليس تحنانــــا يقضى

---

(١) قصته : العاصفة ، من كتابه : العواصف .

(٢) قصة تجاربي مع الحقيقه ٢٥٨ .

(١) ديوان أديب التقي ١٠١

أأحرار أهل الغرب أموا بــلادنا ... تروا كراما لاتسرّ لكم بغضـــا
تعالوا الينــا لالفتــح وغارة ... لتستعبدوا حراً وتستعمروا أرضا
ولكن لترتادوا حقائق شرقنا ... وتستمعوا للقلب عن كثب نبضا

وحين تكون شعوب العرب والهند تحت نير واحد تغدو معالجة اوضاعها في النثر والشعر العربيين أمراً طبيعيا بل لازما . حتى ان هذا التعاطف الشرقي كان يتسع ليشمل وثبة تركيا ونهضة اليابان وكفاح الصين . . غير أن الهند بقيت الموضوع الأثير في الشعر القومي في فترة مابين الحربين العالميتين وكأنها المثال البارز الدال على شراسة الاستعمار وزبانيته . فشاعر عربي كعمر يحيى يخرجه الانكليز من البحرين منفياً الى الهند لايرى فارقاً بين بلدين شرقيين امتدت فوقهما ظلال الاحتلال البغيض :

أنا في الهند أرى الشرق وما ... في حناياه من الداء الدفين
ضاق صدر الشرق عن أبنائه ... وحوى من قادة الغرب مئين
فلكم تضحك الهند أن ترى ... بقرا ترعى وأقواماً تهون
ولكم تبكي اذا شاهدت في ... ساحة الهند جموع البائسين
في هدوء الليل اقوام عــلى ... قارعات الطرق فقراً نائمين
اسبل البؤس عليهم مزقــا ... من ثياب وظلاماً من شجون(١)

ولعل معروف الرصافي[٢] في طليعة شعراء العرب الذين عنوا بكفاح الهند وأحوالها ، كان يتحدث عنها بمرارة وأسى حديثه عن العراق وسائر بلاد العرب :

زر الهند ان رمت العيان . فكم ترى ... على الأرض من غبر هناك ومن شعث
وهم سلبوا ارض العراق سمينهــا ... ولم يتركوا فيها هنالا سوى الغث

---

(١) ديوان البراعم .
(٢) ديوان الرصافي ٤٧٠

ويبدي الرصافي اهتماماً متزايداً بأحوال الهند قارنا اياها مع العراق في وحدة المصاب والمصير :

اذا سمعت الهند في قول قائـــل تخيلت فيلاً بالحديد مكبـلا
تزجيه كف الأجنبي مسخراً فيمشي بأعباء الأجانب مثقلا
ويبرك أحيانا على الارض رازحاً له أنة من ثقل ماقد تحمـــلا
ولو قام هذا الفيل واستجمع القوى ليهز بها شم الجبـــال وقلقلا

حتى أن الرصافي يرى أن ارتباط العراق بالهند ارتباط مصيري ، وان تحرر العراق رهن بتحرر الهند :

ولو لم تكن بالفيل عندي علاقة لما رمت عن هذا الجواب مفصلا
لنا حمل وهو العراق نظنه غدا من وراء الفيل للذئب مأكلا
فان ينج هذا الفيل من قيد أسره نجوة والا اصبح الأمر معضلا

لقد خاب ظن العرب في زعمـــائهم الذين كانوا يتلهون حول خسيس المغانم ، فراحوا يتلهفون على زعامة مخلصة كزعامة غاندي تأخذ بسفينة البلاد الغارقة الى شاطىء السلامة . كان شاعر فلسطين ابراهيم طوقان دائب الانـذار والتحذير من النهاية المظلمة لوطنه ويتطلع أبداً الى ذلك الربان الماهر بنظر البائس القانط :

حبـــذا لو يصوم منا زعيم مثل غاندي عسى يفيد صيامه

ثم يصف مرض الزعامة في وطنه بسخرية مريرة :

مغرم بالبـــلاد صب ولكن سوى القول لايفيض غرامه
بطل ان علا المنابر كرار سريع عند الفعال انهزامه

* * *

هذه الشخصية الآسرة التي انطوى عليها ذلك الجسد الضئيل والتي صور ملامح صاحبها شاعر الهند رابندرانات طاغور بأنها : « الروح العظيم في زي شحاذ »

وكأنما عناها أيضاً شاعرنا القديم ابو العتاهية في قوله انها: «ملك في زي مسكين» هذه الشخصية قد امتدت حتى استحوذت على قلوب الأدباء العرب في مهاجرهم القصية ، وكأنهم وجدوا فيها طرازاً رومانتيكياً متفرداً لانظير له .

ففي قصيدة لالياس قنصل يجمع بين نضال عدد من الأمم الشرقية على صعيد واحد فيتحدث عن الثورة السورية وبطش فرنسة بدمشق ، وعن نضال فلسطين والارهاب الصهيوني ، ثم ينتقل في القصيدة نفسها الى كفاح الهند وزعيمها الأكبر يوحي من الشعور بوحدة القضية المشتركة واضعاً غاندي في مصاف الأنبياء(١) :

| | |
|---|---|
| وما غندي الضعيف سوى نبي | شبيه الأنبياء المرسلينا |

فقد كان غاندي قبلة انظار العرب في مهاجرهم ، يكنون له من الحب والاحترام ومن الاجلال والتقدير ما لا يقل عما يكنه له الهنود . ومن هنا ايضاً كاد الشاعر القروي رشيد سليم الخوري يؤلهه ويرى فيه أمثولة في الزعامة أنجبها الشرق فكانت فخراً له أمام الغرب (٢) :

| | |
|---|---|
| من شط بحر الغانج زار غضنفر | أشجى لسمعي من هديل حمام |
| صوت يردده مسيح الهند في | دهلي لتسمع يا مسيح الشام |

والشاعر القروي الذي طالما ثارت ثائرته على استكانة قومه وتخاذل قادتهم أهاب بشعبه من وراء البحار ان هبوا الى الكفاح هبة غاندي في هنده . لقد أهل عيد الفطر على المسلمين بعد صيام شهر ولكن شتان مابين صيام وصيام :

---

(١)ديوانه : على مذبح الوطنية ٦٩ .

(٢) ديوان القروي ، طبعة وزارة التربية والتعليم بالقاهرة ، ص ٢٧٩ . وقد ألقى قصيدته هذه في حفلة عيد الفطر التي احيتها الجمعية الخيرية الاسلامية في سان باولو سنة ١٩٣٣ .

صياما الى أن يفطر السيف بالدم ... وصمتا الى أن يصدح الحق يا فمي

أفطر ، وأحرار الحمى في مجاعة ... وعيد وأبطال الجهـــد بمأتم

لقد صام ( هنـــدي ) فجوع دولة ... فهل ضار علجا صوم مليون مسلم

تجشم عن اوطانه صوم عامـــد ... فجشم اوطـــان العدى صوم مرغم

وخلى بلاد الظالمين بـــلاده ... تضيق بجيش العاطلين العرمرم

وألقى على ( منشستر ) ظل رهبة ... يضج بأشبـــاح الشقـــاء المخيم

أهاب بآلات الحديـــد فعطلت ... مصانع كانت جنـــة المتنعم

وشل دواليب الرخـــاء بصرخة ... ادارت دواليب القضـــاء المحتم

كساها نسيج العنكبوت، وكم كست ... جسوم الـــبرايا بالقشيب المنمنم

تهدمها أسرار نفس عجيبـــة ... تجول بـــذاك الهيكل المتهدم

فيا لك من عان لديه تصاغرت ... جبـــابر أبدان وعقل ودرهم

وراحت ملوك المال تشكو ببابه ... [illegible] الفقر : يا للظالم المتظلم ..

هبوني عيدا يجعل العرب أمـــة ... وسيروا بجثماني على دين برهم

سلام عـــلى كفر يوحد بيننا ... وأهـــلا وسهلا بعـــده بجهنم



وعلى هذا الغرار من النفس الملحمي مضى القروي في قصيدته مشيدا برسالة غاندي رسالة التمرد والاصرار .

وميخائيل نعيمة الذي كان قطبا آخر بـين أدباء المهجر كان ذا ادراك عميق لحقيقة المنازع الشرقية التي تنطوي عليها الرسالة الغاندية فقد وجد في غاندي صورة اخرى للمسيح تنطوي على الكثير من ملامحه ، وما يتسم بـه في رسالته المثلى المتجلية في اللاعنف ، ألم يردد غاندي نفسه موعظة المسيح على الجبل حتى غدت بعد ذلك بالنسبة اليه نقطة انعطاف في سلوكه وتعاليمه .. ؟ لقـد بلغ من اعجاب نعيمه بغانـدي أن أسماه « ضمير الشرق المستيقظ »[1] ، كما راح يشيد بروحانية الشرق في حماسة بالغة من خـــلال مقالات متعددة ، مثل :

(١) في مهب الريح ١١٣ .

شرق بصير وغرب مبصر ، غرب حاكم وشرق محكوم ، غرب يغرب وشرق يشرق .. (١)

واذا كان نعيمة قد وجد في غاندي الانسان كائنا روحانيا فذاً ، فقد وجد فيه في الوقت نفسه بطلا قوميا فريـدا . لقد حقق غاندي النصر لأمته فتم بذلك وفي الوقت نفسه النصر المبين لرسالته . وفي ذلك يقول :

أصبح المغزل في يد غاندي أمضى من السيف .. وأصبحت الملاءة البسيطة البيضاء التي كانت تلف جسد غاندي النحيل درعا لا تخترقها مـدافع اساطيل سيدة البحار ، وأصبحت عنزة غاندي أشد بأسا من الأسد البريطاني . » (٢)

ثم يتوقف القلب الكبير الذي وضع قضية بـلاده ومشكلات قومه . وكان لا بد له أن يتوقف بعد أن أتم مهمته وبلغ رسالته عبر مسيرة الصراع المرير بين الحق وبين القوة . فقد أوصل سفينة وطنه الى شاطىء السلامة وحقق لها حلم الحرية ، فحق له أن يموت قرير العين . غير أن من المفارقات العجيبة أن هذا الانسان الوادع الذي كان عمره أبـدا داعية اللاعنف هو نفسه سقط ضحية العنف ، فكانت أبلغ نهاية ، وكأن شاعرنا العربي القديم قد عناه بقوله :

وكانت في حيـاتك لي عظات فأنت اليوم أوعظ منك حيـا

ويكون لمصرع غاندي على ذلك النحو من الغدر صدى بعيد في الوجدان البشري تجده معه القول في هذا الانسان العظيم البسيط وتجلى في اثر ذلك منهبه الفريد الذي شع على هـذا العالم المتفجر . وكان صوت الأدب العربي ، شعره ونثره ، في فقده على أوفى الأصوات وأصدقها وأشجاها . وفي ربوع البرازيل

(١) البيادر ١٢٠ — ١٤٢

(٢) في مهب الريح ١١٦

القصية ، في تلك الواحة العربية في صحراء العجمة والغربة تند من الشاعر فرحات عبارات رثاء شجية ينثرها سجاما مع دموعه فاذا هي ابلغ من الشعر . انه يقول من خلال قصيدته « مصرع غاندي » : (١)

« مات غندي ... قتل غندي » .

ان اليد التي صبت السم في كأس سقراط هي التي سمرت الناصري على الصليب .

وهي اليد التي اطلقت الرصاص على غندي

انها يد التعصب الأعمى والحقد الأصم .

غندي الذي قضى حياته ملاكا بين فئات لا تحصى من أبالسة المنادك والمسلمين والسيخ والمنبوذين . مات قتلا .

مات الزعيم البرهمي الروحي الذي لم يحمل سلاحا ، ولم يبارك ، او يبارك حامليه .

كان يحب أعداءه ويبارك لاعنيه ، فواخجلة السيخيين !

مات الزعيم الذي حارب القوة بسلاح الحق ، فدحرهـــا ، فواخجلة الأقوياء المستبدين .

مات غاندي . . مات رجل الانسانية الأوحـــد ، قتله أحد أبناء الانسانية الحمقاء .

ان الانسانية التي توجت اللصوص والسفاحين ملوكا على الناس وأباطرة . .

قتلت سقراط وعيسى وغندي .

فويل لهذه الانسانية المأفونة التي تحيي اللصوص وتقتل المصلحين .

---

(١) ديوانه : « الحريف » ١٦٤ ، سان باولو .

وبل لهـــذه الانسانية من أبنائها المتعصبين ، وويل لها من السياسة والسياسيين ، الفجرة المنافقين الذين يرشحون أنفسهم وشركاءهم لجائزة نوبل السلمية ويتناسون غاندي .

ولا بدع ، ان السلم الذي كان يريده غاندي سلم لا رياء فيه ، سلم يقوم على المحبة والحق والعدل ، وهم انما يريدون سلماً قائما على الرياء والدسائس والاغتصاب والقهر .

سلم غاندي حمائم تتناغى على الأغصان ، وسلمهم ذئاب تتعاوى حول الأشلاء .

ان هذه الانسانية الموبوءة لا تعرف انها فقدت أفضل ابنائها ،وأحسنهم الى الناس ، وأقربهم الى الله .

انها فقدت غاندي .. انها قتلت غاندي



لقد كان غاندي رمز التفاعل الفكري بين العرب والهنود ، ان محبته للعرب وتشبعه بتاريخهم ، ثم اعجاب العرب به وبزعامته في مقابل ذلك ،مما رددته حناجرهم وفاض على لسان كتابهم وشعرائهم ، لهو خير ما يؤكد أن هذا الرجل الفذ لم يكن للهند وحدها بل كان أيضا للعرب ولسائر الشعوب المتلهفة على الحرية . انه روح الشرق العظيم التي ما زالت تشع على الانسانية احساسها العميق بوحدة المصير للجنس البشري المتطلع الى حياة انسانية خصبة يسودها الحق والعدل ، وتشرق فيها شمس الحقيقة لتغمر البشر جميعا بنور الحرية والاخاء والسلام .

# غاندي

## وقرن مضى على ميلاده

د. محمد التونجي



يحتفل العالم في هذا العام بالذكرى المئوية لمصلح الهند الأكبر غاندي . ذكرى تعيد على الأذهان كيف أن انساناً استطاع وحده أن يقود امة تعدّ نصف مليار نسمة تقريباً ، ويحارب أعظم امبراطورية استعمارية بغير سلاح عدا الهمة والعزيمة والايمان .

فقد عرف أن الكلمة الطيبة الصادقة، والعزيمة القوية الصابرة ، والعلم الخالص ... أمور هامة لتحرير الانسان من ربقة الظلم الذي يعتور جزءاً من أجزاء هذا العالم .

فنادى بالغاء التمييز العنصري ، والتفرقة الدينية ، وحث أمته على تعلم لغتها ، ورمي كل ما له علاقة بالانكليز من لغـــة وبضائع وقوانين وألقاب ومعاملات ، ومدارس أيضاً . وقاد الفلاح وعلّمه ، وآزر العامل وحضّه ، وساند المرأة وأنزلها الى حقل العمل ، ونظر الى المعلم بعين المصلح المربي .

كان هذا دأبه نصف قرن من الزمان دون أن يعرف الكلل ولا الملل . ودون أن يتهاون أو يتأخر . استهان بحياته ، ورحب بالسجن ، وحيا المقاومة . على أن مقاومته هذه كانت سلمية لا تعاونية ، سلمية بأن قابل العنف فجابهــه باللاعنف ، والضرائب والقوانين الجائرة التي وضعها المستعمر على رقاب الشعب الهندي ، فأهملها ونادى باللاتعاون معها .

واذا كان همّ بعض دول العالم منذ الأزل الارهاب والاستعباد وخنق الحريات ، فإن همّ المصلحين نشر الحرية والانسانية في البلاد ، وخلق روح المحبة والعدل فيما بين الشعوب . وكان يظهر بين الفينة والفينة مصلح يحاول أن يحرر الانسان من ربقة المظالم التي تطغى عليه وينير له طريق الخلاص .

وقد أثبت التاريخ والعرف أن الشرق مبعث أغلب هؤلاء المصلحين منذ آلاف السنين . ولا زال الشرق يضم في عقد الانسانية أسماء يفخر العالم بها .

وفي العصر الحديث ، عصر الحروب والاستعمار ، سطع نجم من زاوية من زوايا الهند ، حقق لبلاده ولعدد من بلدان العالم كامل الحرية والهمة بسلاح يحقق الهدف المنشود دون أن يصيب أحداً بأذى . حرر الانسان من شتى أنواع العبودية ، فلهجت الشعوب بشكره وفضله ، وستبقى على ذلك ما دام هنـــاك ظلم وقسوة .

اسمه الكامل «موهانداس كارا مشاند غاندي» ولد في بلدة «بورباندار» أي المدينة البيضاء، على ساحل البحر العربي في الثاني من تشرين الأول من عام ١٨٦٩، وتوفي في نهاية شهر كانون الثاني من عام ١٩٤٨. لقب (المهاتما) أي ذا الروح العظيمة، ويطلق هذا اللقب في الهند على الشخص المبجل لحكمته وسمو مبادئه ونكرانه لذاته.

أما والده فهو (كابا غاندي)، محب، شريف، مخلص. لم يكن ذا ثقافة ذات اهمية، وتوفي ولما يبلغ غاندي السادسة عشرة من عمره. وأمه امرأة وهبت حياتهـا للمعابد والنذور، فطبعت طفولة ابنهـا بطابع القداسة والتدين العميقين.

أما هو فصغير الجسم، ضيق مـا بين المنكبين، ذو عينين سوداوين دقيقتين، وأذنين واسعتين بارزتين. قد غطى رأسه بقبعة بيضاء صغيرة، وستر جسمه قماش أبيض خشن، ولف وسطه مئزر بسيط، كما أنه لم ينتعل حذاء اكثر أيام عمره.

كان رجلاً بسيطاً في حياته وفي مأكله، ما ملك أرضاً ولا ادخر مالا، يستيقظ كل صباح في ساعة مبكرة جداً، ويؤدي فريضة صلاته بينه وبين نفسه. أما طعامه فكان لا يتعدى الفول السوداني والتمر والخضار وأحياناً ثمر المانغو. أما اللحم فلم يذقه إلا خلسة أيام الصبا عندما أغراه بأكله زميل له مدعياً أن الانكليز يأكلونه ولهذا السبب فقد صاروا طوالاً عراضاً، وهو اذا أراد ان ينتصر عليهم فعليه أن يأكل اللحم. ولكنه بعد حين عاد فترك اللحم لأن نفسه لم تتقبله، ولأن دينه يحرمه.

حيي خجول ، لايملك الجرأة على المحادثة المنطلقة أو الخطابة الجريئة في النصف الأول من عمره . وكان اذا ما أعد خطبة ما تلعثم وتعذر عليه القاؤها ، فينهض أحد الحاضرين ليتلوها عوضاً عنه ، وحتى كلمته الوداعية غب تخرجه من كلية حقوق لندن لم يستطع القاءها .

ذلكم هو غاندي ، ومع ذلك فانه هز أركان الامبراطورية البريطانية ، وبلغ نفوذه حداً كبيراً في الشعب الهندي لينهض به من غفوته ، ويحارب به الكسل والاستعمار والخنوع . ولم يترك مجالاً واحداً فيه خدمة للبشرية أو حث على الوطنية أو نضال في سبيل الحرية إلا خاض فيه جولات وجولات دون أن يكلّ متنه . وهو معلم علم الشعوب معنى الكفاح ، وعلم شعبه لذة الدفاع عن النفس . فتح المدارس ووجه المعلمين قبل ان يوجه التلاميذ ، وحرص على تربية مثالية في القرى العطشى للعلم والنور . ثم انه انساني دافع عن حق الانسان حيث كان ، دافع عن العالم ضد سيطرة المستعمر ، وتألم لمصاب الشعوب الرازحة تحت عبء الاحتلال ، كما تألم لمصاب العرب في فلسطين من غشم اليهود .



لم ير الراحة في بيته ولا في بلده ، بل كان يجد في كل أرض يشعر أنها بحاجة الى سند . فلم يتخلف قط عن مد يد العون ، وغرس روح المقاومة السلمية في نفوس العديد من البشر . وقدم فلسفة جديدة خالدة في الدفاع عن الوطن . فلسفة جديدة في صد الاهانة والاستغلال ، فلسفة جديدة تنيلنا الحرية والحق دون إراقة الدماء أو فقد الاصدقاء .

لم يكن في صغره تلميذاً بارع الذكاء فذاً ، بل كانت ذاكرته كما يقول عن نفسه فجة . ولعل ابرز حدث في أيام طفولته ، زواجه وهو ابن الثالثة عشرة ،

بلى في هذه السن المبكرة ، وهو تلميذ في احـــدى المدارس الثانوية . فقد قرر أركان الأسرة تزويجه وتزويج أخيه الاكبر ، وتزويج ابن عمه دفعة واحدة . وكانوا ثلاثتهم تلاميذ مدرسة واحدة ، دون أن يفكروا بمصلحة هؤلاء الأطفال أو برغباتهم . انما فكروا بالولائم والليالي الملاح التي سيقيمونها ، وبالتالي بالتوفير المادي الذي سيجنونه من جراء دمج ثلاثة أعراس ببعضها . وهو اذا تألم لهـــذا الزواج المبكر فانه فرح بالألبسة القشيبة التي سيرتديها والاطعمة اللذيذة التي سيطعمها والرفيقة الصغيرة التي سيلعب معها .

وكانت كاستورباي – وهو اسم زوجته الطفلة – امية بسيطة مثابرة كتوماً . وكان يسعى الى تعليمها ما يتعلمه في المدرسة . كان يكره المطالعة بغير الكتب المدرسية ، كما كان يواظب على دروسه جيداً لأنه كان يخشى أن يوبخه معلمه .



ويسافر إلى لندن بعد أن ينجح في الثانوية عام ١٨٨٧ ويدخل كلية الحقوق بعد أن أقسم لأمه الورعة ولأفراد أسرته الأيمان المغلظة أنه لن يمس الخمرة والمرأة واللحم وهي أمور محرمة في الديانة الهندوسية .

ولقد أحبّ هناك أن يغدو جنتلماناً انكليزياً ، فاشترى مرآة لتصفيف شعره في حين أنها كانت في الهند تعتبر من أسباب الترف ، وتعلم فن ربط عقدة الرقبة ، وأخذ دروساً في الرقص واللغة الفرنسية والعزف على البيانو لكي يعوّد أذنه على الموسيقا ، ويحدّث الطبقة الراقية بالفرنسية . غير أنه عزف عن كل ذلك فجأة عندما تذكر أنه انما جاء إلى هنـــا ليحصل على الشهادة لا ليكون أوروبياً .

وعندما عاد إلى بلاده عام ١٨٩١ ، وبدأ العمل كمحام أحسّ أنه ليس أهلاً لهذه المهنة فلم يحرز التوفيق المفروض ، وفي هذه الاثناء جاءه عرض للاحقة قضية في جنوب افريقية ، فرغب في السفر ورحّب به مع أن العرض غير مغر .

فغادر الهند إلى جنوب افريقية عام ١٨٩٣ ، أي بعد ربع قرن من قدوم الهنود إلى تلك البلاد ، ولم تكن لديه أية فكرة عن وضع المهاجرين الهنود. فقد احتاج الانكليز إلى أيد عاملة ، فتفاوضت مع حكومة الهند طالبين تزويدها بالأيدي العاملة ، ووصلت الزمرة الأولى من العمال الهنود المشتغلين بالتعاقد إلى ( ناتال ) عام ١٨٤٠ .

ومنذ وصولهم والضغط عليهم يتزايد ، والقوانين الشديدة تُرسم ، ولم يكن بين الهنود قادر على انقاذهم أو توجيههم . وعندما وصل غاندي إلى جنوب افريقية عام ١٨٩٣ كان مجرد محام عادي جاء لملاحقة القضية التي قدم من أجلها ، ولم يكن في فكره أنه سيكون ذا شأن هناك ، وسيبدع في فكره ، ويقدم للانسانية فلسفة جديدة لمقاومة الاضطهاد والاستعباد ، فلسفة تحارب الظلم بالسلم ، والعنف باللاعنف ، والامبراطورية ببعض أفراد ألهموا عزيمة وطنية وطيدة

وما إن وصل حتى انفتحت عيناه على واقع الهنود المرير ، فقد لاحظ منذ اليوم الأول أن الأوروبيين يخصون الهنود بمعاملة مغالية في التفرقة العنصرية، وفي الاهانة والاحتقار . وقد لمس الإهانة بنفسه عندما أنزل من القطار لأنه ركب الدرجة الأولى ، وأخرج من عربة الركاب عندما علم صاحبها أنه هندي ،

وضرب وركل حينما مشى في الشارع ليلاً ، والسير ليلاً محذّر على الهنود ، كما لم يتنازل الحلاق الأبيض أن يمسّ شعره الأسود .

وعندما رغب في العودة رجاه صحبه أن يبقى بينهم يساعدهم في أمورهم ، ويدافع عن مطالبهم ، وهم مستعدون لدفع مايطلب أجر أتعابه ، فوافق على البقاء ولم يوافق على الدفع ، ذلك أنه اعتبر هذا الأمر واجباً وطنياً خالصاً لبني جلدته . فقرر البقـــاء إلى أن يفوزوا بمعاملة خير من هذه المعاملة السيئة .

فبدأ بإقامة اجتماعات دورية مع الهنود الآسيويين يحضّهم على جمع كلمتهم في مطالبهم ، وعلى ترك الخلافات الدينية والمذهبية جانباً تجاه البيض الذين يسومونهم ألوان العذاب .

وأخذ في حصر الوقائع التي يعيشونها فرأى أن الأوروبيين يريدون الحد من هجرة الهنود ، والحط من مكانتهم ، ووضع ضريبة سنوية قدرها ثلاثة جنيهات على كل هندي يحيا في جنوب افريقية ، و كثرة القوانين المجحفة بحقهم وبحريتهم ، إلى غير ذلك من الأمور التي كانت حجرة عثرة في استقرارهم وحياتهم هناك .

وبعد تفكير عميق وجد أن العنف لاينفع في المجابهة وغير مجد ، فعمد إلى مقابلة العنف باللاعنف ، والاحتقار والاستهتار بالصبر والتحمل ، وحثّ الشعب أن يتحمل المصاعب ويستهين بالتعذيب والسجون في سبيل الحرية التي ينشدها .

وجد أن اللاعنف أو مايسمى ( بالساتياغراها ) الأصل في فلسفته النضالية الوطنية ، ومن شروطها أنها لاتنطوي على ايذاء الخصم ، وتفرض الفوز عن

طريق انزال المرء ضروب الأذى بنفسه هو ، كما أنه لايعتمد على المساعدة الخارجية إلا قليلاً ، وان العلاجات الداخلية وحدها هي الفعالة في هذا الحقل . وعدم وجود المال لايميت حركتهم . كما أن الارهاق لايعرف سبيلاً إلى نفس الساتياغراهي ماتمتع هذا المناضل بالقدرة على الاحتمال ، وعليه أن يرضخ صابراً للسجون والتعذيب والاهانات ، دون أن تثور ثائرته ويبطش أويتعدى عليه .

وظل على هذا الكفاح سنين حتى ظفر في نهاية الأمر في تحقيق أغلب ماطالب به ، وعندئذ وجد أن مهمته في جنوب افريقية قد انتهت ، وعليه أن يعود إلى وطنه ليتمم ماقام به من واجبات مقدسة نحو شعبه .

وعندما وصل إلى الهند عام ١٩١٤ أحس أن صلته بوطنه غير كافية ، ومعرفته بمطالبه واحتياجاته ليست وافية . لذا قضى سنتين متجولاً ومنكباً على دراسة أحوال البلاد بأذنين مفتوحتين وفم مغلق .



وجد أن الشعب الهندي منقسم إلى طبقات ، وبالتالي مشطر إلى عدة أديان ومذاهب ، واللغة القومية تتوسيت أمام اللغة الانكليزية ، وأن العامل مقهور أمام تسلط أصحاب المعامل ، وأن الفلاح يتضور جوعاً وجهلاً مقابل جبروت الدهاقنة وكبار المزارعين ، وأن الشعب بين جاهل لايعرف شيئاً في الحياة وبين متأنكلز لايهمه أمر في البلاد ، والثقافة انكليزية والبضائع أجنبية ، والأيدي العاملة خالية من كل عمل .

وجه عنايته نحو سائر طبقات المجتمع وساعدها على التيقظ ، فالفلاحون يعيشون في ظلم وظلام ، فراح يحضهم على رفض القوانين الجائرة المنصوصة في حقهم من جراء ظلم المستعمر أو أذياله . ولبى نداء العمال لينصفهم ويوجههم

نحو سياسة اللاعنف للوصول إلى حقوقهم ، وطالب الشعب أن يتكلم اللغة الهندية ، ويترك لغة المستعمر المتفشية بين الناس ، وحاول حل القيود الطبقية دون معاداة أية طبقة كانت ، ونادى بحرية الأديان ، وضرورة تمسك المرء بدينه .

ولما وجد البطالة متفشية في جموع الهند الغفيرة ، شجعهم على مقاطعة البضائع الانكليزية ، ونسج الأقمشة على الدولاب فتشجع الناس ، وبدأوا يغزلون وينسجون ألبستهم بأنفسهم ويبيعون الفائض ، حتى إن أصوات المغازل كانت تتصاعد من نوافذ المنازل ، وكأنها تغني نشيد الحرية والاستقلال . وانتشرت حركة الغزل والنسج حتى عمت أرجاء البلاد ، فكسدت الأقمشة الانكليزية وضربت اقتصاد بريطانية ضربة قاسية .

وهكذا مضى غاندي غير عابىء بمواجهة الأخطار ، وتحديات الاستعمار . وراح يجري التحقيقات في مظـــالم الشعب كما مضى في اعطـائهم دروس الساتياغراها ( اللاعنف ) . وعلمهم أن الشرط الأول للحصول على الحرية هو تحرر الذات البشرية من الخوف .

فذاعت شهرته في أنحاء الهند ، فمال عليه الناس يقدمون له واجب الطاعة ويعتبرونه القدوة الرائدة . وخاف منه المستعمر ، فرماه وتلامذته ، في السجن المرة بعد المرة .. غير أنه كان في كل مرة يغدو أصلب عوداً وأكثر تمسكاً بسياسة اللاتعاون واللاعنف .

ومضى على ذلك سنين طويلة يكافح فأصيبت الحكومة بضربة قاسية تلتها ضربات وضربات ، فصغرت للأمر بعد أن شعرت أن عليها أن تخاطب

الشعب الهندي بأسلوب أكثر تفهماً ووعياً ، فعقدت مؤتمرات المائدة المستديرة ، وقد حضر غاندي بعضها ، فذهب الى لندن بمئزره الأبيض فانزعج تشرشل من هذا الانسان العاري الذي يجالس ويناقش نائب الملك وهو نصف عار ، ومادرى أن هذا الانسان كسا شعبه ثوب الحرية الفضفاض يفخر به الشعب على مر الأجيال ، وكلّل رأسه غصن النصر فكان تاجاً لماعاً ، وحلّى قدميه بنعل يستطيع به أن يسير حراً من أقصى الهند إلى أقصاه .

واضطرت بريطانيه في ١٥ آب ١٩٤٧ ان تسلم مقاليد الحكم لشعب الهند بعد ان فشلت أسلحتها أمام سلاح غاندي الذي لم يكن غير عقيدة تمسك بها وعزيمة استهوته ، ولا عنف أرعب به عنف الاستعمار .

وهكذا عاش غاندي بين الشعب أحس بأحاسيسه ، وتألم لمصابه ، وشاركه مصاعبه . بل أنار له الطريق القويم للوصول الى الاستقلال . ولقد ظل من عام ١٩١٩ حتى مقتله ١٩٤٨ يشغل المكان الرئيسي على مسرح أحداث الهند زعيماً مناضلاً ، ومحرراً البلاد دون اراقة دماء . وقد قال في أحد كتبه :

« جعلت من دين الخدمة ديناً لي ، وكانت الخدمة عندي هي خدمة الهند ، لأنها كانت تقبل علي من غير ان أسعى اليها » .

أما موقفه من العرب فكان موقفاً مشرفاً ، فقد أعلن عن رأيه بالعرب أصحاب الحق الشرعي في فلسطين ، وانما اليهود يغصبون الأرض غصباً . وقد نشر رأيه في العرب واليهود في مجلة ( هاريجان ) عام ١٩٣٨ فقال :

« ان عواطفي كلها مع اليهود ، ولكن عطفي عليهم لن يعميني عن مقتضيات العدالة ، فأنا لا أستسيغ المطالبة بانشاء وطن قومي لليهود ، ففلسطين ملك للعرب ، تماماً كما أن انكلترا ملك للانكليز ، وفرنسا للفرنسيين . واذا لم يكن لليهود وطن إلا فلسطين

فكيف بهم اذا أرغموا على ترك الأماكن الأخرى التي يعيشون فيها في انحاء العالم ؟ ان فلسطين التي جاء ذكرها في التوراة ليست في رقعة الأرض الجغرافية ، بل هي في قلوبهم . أما اذا كان لابد لليهود من ان يتمسكوا بفلسطين ، الأرض الجغرافية ، فمن الخطأ كذلك أن يدخلوها في ظل المدافع البريطانية وعلى أسنة رماحهم ، وليس هناك ما يمكن أن يقال ضد مقاومة العرب في مواجهة عقبات لاقبل لهم بها » .

وعندما مر بعدن في طريقه الى لندن لحضور المائدة المستديرة عام ١٩٣١ ، خاطب الجموع العربية المستقبلة قائلاً :

« ان هـــذه الجزة العظيمة الـــتي ولد فيها محمد وبعث فيها الاسلام مثل حي على التسامح الديني وعلى انسانية الانسان . » .

وقد قتله أحد بني دينه ووطنه ، لأنه نادى بوحدة الهند بين الاسلام والهندوس ، فما كان يريد ان يظفر المستعمر بتقسيم البلاد ، ولأنه كان يخص الفئة المسلمة بالمحبة التي كان يخصها للهندوس لأن الفئتين من شعبه ، فضربه ثلاث رصاصات أردته قتيلاً ، وأصعقت البلاد ، وتألم الشعب ، وقد نعاه جواهر لال نهرو بالراديو ساعة مصرعه فقال :



« لقد خبا النور من حياتنا ، وانتشر الظلام في كل مكان . فلم أعد أعرف ما أقوله لكم ولا كيف أقوله . لقد اختفى زعيمنا المحبوب (بابو) أبو الشعب من بيننا . لقد قلت ان النور قد خبا من حياتنا ولكنني أخطأت ، فإن هذا النور الذي سطع على البلاد لم يكن نوراً عادياً . ان النور الذي أنار حياة هذه البلاد سنوات عديدة ، سوف يظل يضيئها سنوات عديدة اخرى . وسوف يبقى ماثلاً أمام أعين الناس بعد ألف عام ، يراه العالم أجمع ، ويدخل السكينة على قلوب لاحصر لها ، فإن هذا النور كان يمثل الحق في صورته الحية ، فلقد أقام هذا الرجل الخالد بيننا يحمل رسالة الحق الخالدة ، ويذكرنا بالطريق المستقيم ، ويجذ بنا بعيداً عن الخطأ ، ويقود هذا البلد العتيد نحو الحرية » .

## غاندي في سطور

● ولد موهانداس كارامشاند غاندي في ٢ تشرين الاول عام ١٨٦٩ في بلدة صغيرة اسمها بوربالندر . والمهاتما لقبه ومعناه : الروح العظيمة . وقد احتفل العالم في الشهر الماضي بالذكرى المئوية لميلاد غاندي .

● بعد أن انهى دراسته الثانوية ذهب في ايلول عام ١٨٨٨ الى لندن لدراسة الحقوق ، ثم عاد الى بومباي ليزاول المحاماة ، التي لم ترق له مهنة .

● وفي عام ١٨٩٣ ذهب غاندي الى جنوب أفريقيا لمهمة قضائية . وهناك لمس الاضطهاد والضغط اللذين يرزح تحتها مواطنوه الهنود في ناتال . وفي جنوب أفريقيا بدأت تتكشف انسانية غاندي ، وبدأت تتكون أول مبادىء فلسفته الداعية الى مقاومة الاستعباد ومحاربة الظلم بالوسائل السلمية واللاعنف .

● في عام ١٩١٥ عاد غاندي الى الهند بعد أن أحس بأنه عمل كل مايستطيع لرفع الظلم عن مواطنيه وتحقيق مطاليبهم العادلة ، عاد ليتابع رسالته في الوطن ذاته . وكانت شهرته قد سبقته الى بلاده .

● كان أول من دعا الى مقاطعة البضائع الانكليزية ، وراح يغزل ثوبه بنفسه ليشجع الناس على أن يعملوا بأنفسهم ويتحرروا من الاستعمار والاقتصاد الاجنبي . كما دعا الى مقاومة الاستعمار البريطاني بأسلوب اللاعنف واللاتعاون اللذين عرفا عنه . وتعرض غاندي للاخطار والسجن ، ولكن التفاف الشعب حوله وانتشار أفكاره انتشاراً واسعاً جعل الحكومة البريطانية تذعن في النهاية وتسلم الحكم للشعب .

● لم يكن غاندي فيلسوف « الأبراج العاجية » ، فقد انبثقت فلسفته من عذاب الشعب ومآسيه وآلامه ، انبثقت من الشارع والقرية والمعمل والكوخ ، انبثقت من البطالة والفقر المنتشرين في طول الهند وعرضها . كان فيلسوفاً مكافحاً أشبه بنبي جديد .

● توفي غاندي في نهاية كانون الثاني عام ١٩٤٨ بعد أن صرعته ثلاث رصاصات غادرة من مجرم طائفي .

# تراث غاندي

بقلم السيدة أنديرا غاندي
رئيسة وزراء الهند



إن ادراك الفرد لشخصية غاندي ومدى تفهمه لحقيقتها، مقياس لما يطرأ على تفكيره من نمو وتطور. فحين كان غاندي حياً كان كثيرون ممن في سني يجدون من الصعب عليهم أن يفهموه، ويضيقون بما كنا نعتبره « بدعاً » ، كما كانت بعض تعبيراته غامضة علينا. لقد كنا نسلم جميعاً بقداسته ولكنا كنا نختلف معه في اقحام الغيبيات والروحانيات على أمور السياسة .

وهذا القول لم ينطبق على جيلي وحده ، فقد وصف أبي في سيرته الذاتية الصعوبة التي كان هو وغيره من أبناء جيله يصادفونها في التوفيق بين آراء غاندي وبين تفكيرهم . على أن تجارب المد والجزر التي صادفتهــــا حركة الهند الوطنية ساعدت ابي شيئاً فشيئاً على فهم غاندي فهماً أوسع وعلى نسج العناصر الأساسية من تفكير غاندي مع عناصر تفكـيره في نسيج واحد . لقد نعته أبي بأنه « ساحر » وحاول في اخلاص أن يترجم الآراء الغـاندية الى لغة العصر لكي تكون أكثر قبولاً عند الناس ولكي يمتد أثرها الى الشباب والمثقفين .

أما غاندي نفسه فلم يكن يتطلب من الناس طاعة عمياء ولم ينتظر منهم قبول أهدافه ووسائله دون تفكير أو تمحيص ، بل كان يشجع الناس على النقاش ويستحثهم على المحاجة . نعم ، فكم من مرة حاججته وأنا بعد فتاة صغيرة ! فهو لم ينظر أبداً الى رأي شريف على أنه تافه ، وكان دائماً يجد من الوقت ما يكرسه لأولئك الذين يختلفون عنه في الرأي ، وهي صفة نادرة حتى بين المعلمين في الهند وغيرها . وهو فوق هذا لم يدّعِ أن وحياً يهبط عليه ، ولم يلجأ يوماً الى الوعـد أو وعيد ، ولم تثقل رسالته على ضخامتها كاهله ، بل كان قديساً يمازح الناس ويجد في نفسه مكاناً للضحك .

ويتصادف أن يكون العام المئوي لذكرى مولد غاندي هو كذلك الذكرى الخامسة عشرة لمذبحة حديقة جاليانوالا . وخليق بأولئك الذين يخلطون بين الصرامة أو الفظاظة وبين القوة أن يفكروا بما كان لهذا الحادث الغاشم من أثر على مستقبل الامبراطورية البريطانية كلها ، فقلما كان لحادث بذاته مثل هذا الأثر في استثارة شعب بأجمعه وفي دفعه دفعاً الى اعادة تقدير قيمه وأهدافه . لقد كان لهذا الحادث وقع شديد في نفوس رجال من أمثال جواهرلال نهرو والشاعر

وابندرانات طاغور . فأما طاغور فقـــد رد رتبة الفروسية التي كانت الحكومة البريطانية قد أنعمت بها عليه وشرع يكتب في قوة وادراك عن مشكلات الاستعمار . وأما جدّي موتيلال نهرو فقد اجتذبته تعاليم غاندي اليها هو وسائر أفراد العائلة فاذا بهم يرجعون اليه جميعاً . وتغيرت حياتنا من أساسها بعد ذلك ، كما تغير مزاج البلاد من أقصاها الى أدناها . نعم ، لقد كانت تلك السنة المشهودة هي السنة التي أسلمت دفة الحركة الوطنية لغاندي . فاذا نظرنا الى الخلف ، عبر نصف القرن الماضي ، أمكننا أن نتبيّن أثر شخصيته وتعاليمه كاملا ، وان كان تقدير كليهما تقديراً كاملا ما زال أكثر مما نطمع في تحقيقه اليوم ، فنحن ما زلنا قريبين منه ، وما زلنا في حالة انتقال ، ولن يستطيع الناس أن يقدروا ما أداه غاندي للهند ، وما أداه للانسانية جمعاء ، إلا بعد حقبات طويلة من الزمن .

ومع ذلك فنحن لا نملك إلا أن ندهش من الاتجاه الجديد الذي دفع فيه تاريخنا في تلك السنة الواحدة، فلقد بدا وكأنه رفع بيديه النحيلتين شعباً بأكمله . فما أعظم التحول الكبير الذي أحدثه في الحياة الشخصية لهذا العدد الضخم من الناس ، كبيرهم وصغيرهم ، عليّهم ووضيعهم على السواء ! والحق ، لأن يكون الانسان المحرك الرئيسي في ميدان السياسة أمر لا يعلو في قدره على أن يكون العامل الذي يؤثر في حياة الناس الداخلية . نعم ، فلقد كان غاندي يختلف عمن سبقوه على مسرح الوطن . ذلك لأنه رفض أن يتبع سياسة الصفوة من الناس وآثر أن يكتشف مفاتيح العمل الجماهيري ، فارتبط ارتباطاً وثيقاً بعقول الجماهير ، يفسر ما يدور فيها ، وفي الوقت نفسه يصوغها صوغاً جديداً . لقد كان يمثل قمة الموج ، أما الموج نفسه فكان الشعب .

لقد حررنا غاندي من الخوف ، فان تحرير البلاد سياسياً لم يكن نهاية الشوط ، بل كان أحد المنتجات الفرعية التي تنبعث من تحرر الروح . بل لعل التبدل الذي أحدثه غاندي في مناخ الهند الاجتماعي كان أعظم وأبعد أثراً ، فلقد حررنا كذلك من القيود التي كانت تفرضها علينا تقاليدنا الاجتماعية ، وأزال الحواجز التي كانت تحول دون تقدمنا الاجتماعي ، فإلى تسليمه البديهي بالمساواة بين النساء والرجال ، بين وضيع المنبت وكريمه في تعبير ذلك الوقت ، بين أهل المدن وسكان الريف ، يرجع الفضل في اندفاع الجماهير الى حلبة الحركة الغاندية . لقد ظهر في الهند على مدى تاريخها الطويل مصلحون كثيرون جاهدوا ضد نظام طبقاتها الهرمي وضد المركز الوضيع الذي كان من حظ المرأة ، ولكن أحداً منهم لم يستطع أن يكسر حواجز التمييز كما فعل غاندي ، وان نساء الهند لمدينات له بدين خاص من الاعتراف بالجميل بقدر ما طوق جميله عنق جميع الفئات الأخرى التي تحملت أوضار القيود القديمة ردحاً طويلاً .



لقد كتب غاندي يقول :

> « لا يقولن أحد انه من أتباع غاندي ، وحسبي أن أكون تابع نفسي . بل انني أدرك مدى قصوري كتابع لنفسي ، لأنني لا أستطيع أن أعيش وفق معتقداتي التي أجاهد من أجلها »

إن من الغانديين من يريدوننا على أن نؤمن بأن غاندي قد أخرج للناس فلسفة عالية ، تحلل كل شيء ، وتوفق بين كل شيء ، وتصف الدواء لكل ظرف أو طارىء . ولكن ما أظلم هذا القول عن رجل لم يدّع لنفسه العلم بكل الأمور ، ولم يتوقف يوماً عن تجاربه في صدق وإدراك ! لقد كان غاندي شخصية

متكاملة ، لكنه لم يتعامل قط بلغة التعميم والاطلاق الشامل . ان قلة من الرجال المثاليين هم الذين يزوه في مثاليته ، وقلة من هؤلاء كانوا أكثر صيغة عملية منه . فلقد كان يضع الحقائق الأساسية أمام الناس ، لكنه في كل خطة من خطط العمل التي رسمها كان يسير على مبدأ « خطوة واحدة تكفيني » .

لقد تعرضت خطة التنمية الصناعية المرسومة التي سارت عليها الهند خلال الحقبتين الأخيرتين في بعض الحالات للنقد واعتبرت خروجاً متعمداً على المبادىء الغاندية . غير أن أولئك الذين يوجهون هذا الاتهام ويحبذون الصناعات الصغيرة لا يترددون هم أنفسهم في استخدام ثمرات الصناعات الكبيرة ، كالطيارات والسيارات والتليفونات . وغاندي نفسه لم يقاطع السكك الحديدية وكان يستخدم الساعات في المحافظة الدقيقة على مواعيده . فاذا كنا نستخدم السكك الحديدية والساعات فأي حكمة في الا نصنعها بأنفسنا ؟ واذن فمن واجبنا أن نتفهم رأي غاندي إذ يحبذ الصناعات الصغيرة في وضعه الصحيح . لقد كان غاندي يكره كل اسراف أو تبديد ، فكان حريصاً على استخدام الطاقات الكامنة في هذا الجيش العرموم من الرجال العاطلين في الريف ؛ بغية انتاج مزيد من السلع للشعب وبعض الثروة لأنفسنا . أضف الى ذلك أنه ، شأنه شأن غيره من الرجال الذين سبقوه من ذوي الحساسية الفائقة ، كان متأثراً بالنتائج الموحشة التي أسفرت عنها المرحلة الأولى من مراحل التصنيع ، ولذلك فقد أراد ، وهو البصير بأحوال الناس المهتم بمصائرهم ، أن يحذرنا من أن نصبح أسرى لأعمالنا ، ولهذا ففي خلال كتاباته المستفيضة عن الآلات ومكانها بين الناس نجد فقرات كثيرة كلها تشهد بأن نظرة غاندي الى الآلات كانت اوسع وأكثر انسانية في ناحيتها العلمية مما يريدنا بعض المفسرين الحرفيين على أن نصدقه .

وفي رأي ، أن غاندي لم يكن مجموعة من الآراء والتعاليم الجافة بل رجلا يشع حياة ، حريصاً على أن يذكرنا بأرفع المستويات التي يستطيع الانسان أن يبلغها . لقد كان يعمل للمستقبل ، وهو الذي حوى خير ما في الماضي وعاش في الحاضر ، ومن هنا كانت آراؤه الرفيعة لا يحدها زمان . ان كثيراً مما قاله وما كتبه قصد منه حل مشكلات عاجلة ، وبعضها قصد منه أن يكون هدياً للأفراد من صميم اعماقهم ، ولم يلجأ في هذا أو ذاك الى آراء مستقاة ، بل كان يصوغ آراءه بنفسه ويتخذ منها أداته وعدته وهو يجري تجاربه في معمل حياته .

لقد قال جوبال كريشنا جوكهال ، وهو يتحدث عن أعمال غاندي في جنوب افريقية ، ان غاندي قد جعل من الصلصال أبطالاً ، وإني لأتساءل أحياناً: ألم تعد صلصالاً مرة اخرى ؟ ان الجد الذي يصنعه المعلم الصادق في زمنه لا يمكن أن يدوم طويلا ، لكن تعاليم أمثال هؤلاء المعلمين لها مرمى أبعد بكثير من زمنهم ومن حدود بلادهم . ونحن الذين ولدنا في زمن غاندي ، ونشأنا في بلده ، مدينون له بدين خاص يحتم علينا أن نحتفظ بذكراه ، فلقد كانت حياته ، أكثر مما كانت كلماته ، رسالته الحقة الى الناس .

والانسان حين يحقق لنفسه صفة عالمية يفعل ذلك ، لا رغم زمانه ومكانه بل من خلالها ، فلقد شدّ غاندي نفسه الى الرجل العادي في الهند وارتبط به ارتباطاً كلياً ، حتى لقد غيّر من لباسه ليوائم لباسه ، ولكنه ظل مع ذلك على استعداد كامل لتقبل أحسن الآراء التي تأتيه من جهات أخرى من العالم ، وهكذا فإن الأثر الذي تركته في نفسه اقامته في انجلترا ، كطالب يطلب العلم ، ثم في جنوب افريقية ، كمحام يمارس مهنته ، كان واضحاً جلياً ، انعكس في اصراره

على مراعاة القواعد الصحية وفي عادة اختبار صحة كل ما يسمعه بتطبيق شروط البينة عليه تطبيقاً دقيقاً ، فاذا استصوب فكرة هضمها ثم اخرج منها حلولاً هندية لمشكلات هندية .

وثمة جانب آخر من جوانب تراثه المجيد ، ألا وهو العلمانية التي عاش لها واستشهد في سبيلها . والعلمانية لا تعني بطبيعة الحال العزوف عن الدين أو عدم المبالاة به ، بل تعني احترام جميع الأديان ـ لا تسامحاً ، بل احتراماً ايجابياً . والعلمانية بعد هذا تتطلب جهداً متواصلاً وفحصاً للنفس لا ينقطع . لقد نقش آشوكا فوق الصخور هذه الحكمة البالغة وهي أن المرء ان يحترم دينه حتى يحترم دين غيره ، وقد كان للهند شأن عظيم وارتفعت مكانتها طالما كانت هذه الحكمة العظيمة أمراً يعترف به حكامها ويمارسونه . وفي وقتنا الحاضر جعل غـاندي وجواهر لال نهرو من هذه الحقيقة الكبرى عقيدة حية بدونها لن يكون لشعب الهند مستقبل .

فاذا انتقلت الى الحديث عن جانب آخر من تعاليم غاندي ، وهو عدم العنف ، ترددت كثيراً ، ترددت لا لأني أجد ما يسوغ العنف ، بل لأن الناس قد كدسوا من أسلحة القتل والدمار مـا يحملني على التشكك أحيـاناً في أن من حقنا حتى أن نؤمل . فالحروب لا تفتأ تتفجر هنا وهناك ، ولكن أكثر من هذا مدعاة الى الألم وإثارة للذعر مـا نشهده اليوم من نمو الحقد والكراهية في عقول الناس وازدياد سمات العنف في أعمالهم في جميع أرجاء العالم ، ومـا يستتبعه ذلك من اللجوء في غير روية أو حذر الى أساليب الاستثارة . على أن ممـا يؤثر عن غاندي قوله : « في وسط الظلام الحالك يظل النور موجوداً » ، ومن ثم فان الواجب يقتضينا أن نظل محتفظ بثقتنا وايماننا . ولعل أسمى مازكي غاندي أنه كشف للناس عن

طريق مقاومة القوة المسلحة من غير سلاح . واذا كان ذلك قد حدث مرة أفلا يمكن أن يحدث مرة أخرى ؟

ان الحياة معناها الجهاد ، وكلما مما هدفك الذي وضعته نصب عينيك تطلعت نفسك الى مزيد من الانجاز ، وزاد ما هو مطلوب منك من عمل وتضحية لقد استطاع رجال من جميع الأديان أن يكشفوا للناس عن حقائق الحياة الخالدة ، ومن حسن طالع الهند أن تكون قد أخرجت من بين أبنائها من بعثوا الحياة من جديد في آرائها وأفكارها القديمة فجعلوها جزءاً من حياة الناس . وهكذا رأينا الناس في الهند في خلال حياتنا يسترشدون في أخطر الأوقات وأحرجها بالمهاتما غاندي وجواهر لال نهرو اللذين أفنيا نفسيهما في العالم العام . لقد كان كل منهما مكملًا للآخر وقد علمّا الناس أن كل قرار يجب أن يوضع موضع الاختبار الصعب من حيث مدى ما له من أثر على خير الجماهير ورفاهيتها ، وهو مبدأ كفيل بأن يجنبنا الخطأ أكثر من كل العبارات الرنانة التي تنتهي بحرف ( I S M ) ، أو كما جاء في عبارة جواهر لال نهرو :

« اعظم ما نقدمه من العبادات أن نتعهد بأن نكرس انفسنا للحق والمبدأ الذي عاش هذا المواطن العظيم ومات من أجله »

# رسالة الرئيس الهندي الراحل الدكتور ذاكر حسين بمناسبة الذكرى المئوية لغاندي

أستطيع بوصفي هندياً أن اتحدث اليوم الى الشعب الهندي عن المهاتما غاندي بنصيب اوفر من الحرية والثقة . لقد كانت الهند هي الموطن الذي ولد فيه غاندي ، ونطق ، وكتب ، وعمل بدون انقطاع ولا كلل قرابة نصف قرن . وكانت الهند ايضاً الموطن الذي سال فيه دمه الطاهر عندما صرعته رصاصات مجرم ، وذهب شعلة مجد لا يجارى من أجل قضية السلم والمحبة بين مواطنيه . ولكن كيف يسعني في الوقت الحاضر من تاريخ العالم أن أشرح عقل الجنس البشري واستجاباته بوصفي هندياً وغير هندي. ففي ذهني أسرة الانسان كلها أسرة واحدة وغير مجزأة وغاندي أيضاً لم يكن هندياً فقط ، وهو لا ينتمي الى الهند وحدها . فقد تمثل خير ما في كل حضارة وثقافة معروفتين لنا . ونحن نرى الجنس البشري ما زال يواجه مسائل ويتعثر بمشكلات هي من صلب حياته وعمله . ولم يصادف التاريخ من قبل أبداً إمكان اقتراب « عالم واحد » منا كما يحدث الآن ، ومع هذا لم تكن هذه الامكانية في وقت من الأوقات أكثر خداعاً عما هي عليه اليوم . دعوني ، لهذا ، لا أتنصل من مسؤولية التحدث الى الناس في كل مكان، اللهم ان كان بوسعي أن اصل اليهم . وأتذكر ، تتنازعني عواطف لايمكن وصفها، أننا الآن على عتبة السنة المئوية لغاندي .

إذا كان علينا أن نفهم من أجل أن نعرف ، وأن نفتح قابلية التسليم من أجل نفهم ، فإن من واجبنا جميعاً في الهند ، نحن الذين نقدس رسالة غاندي، أن ننقلها الى الناس في كل مكان وبكل ما في وسعنا من قدرة . ونحن على ما يبدو لا نستطيع أن نفعل ذلك ما لم يكن لدينا مقياس للايمان والاعتقاد بأن ماندو غاندي نفسه له، وما أنجزه ، له أهمية مستمرة للجنس البشري. وأنا نفسي أؤكد أن تأثير غاندي على التقدم البشري ستتزايد أهميته مع توالي العصور .

وغاندي ، شأنه شأن الرجال العظام الآخرين في التاريخ ، كان منهمكاً في أفكار وبرامج كانت أكثر ملائمة لوقتها الآني وبيئتها ، ولعلها لم تكن راسخة بالنسبة لكل الناس في كل وقت . ونحن نستطيع أن نتركها للتاريخ لتقصي مثل هذه المسائل غير الدائمة في فكر غاندي وعمله . ولكن علينا ألا نفشل اليوم في تركيز الانتباه على الفضائل التي لا تقدر بثمن الأفكار الأساسية ، وكذلك في تركيز الانتباه على الأساليب الأساسية للعمل والترتيبات الاجتماعية المصاحبة لها التي جاءتنا من غاندي . ومن الخطأ أن نتذكر غاندي قديساً فقط ، لا لشيء إلا لأنه كان بكل عمق انساناً في العالم المهتم بالمشكلات السياسية والاقتصادية والثقافية للهند الحديثة والعالم .

لقد كان انساناً كاملاً تتوازن فيه الفضائل الروحية والأخلاقية والاجتماعية والثقافية في موسوية رائعة لحياة كاملة . ولا يوجد زعيم في ذاكرتنا توازن في نفسه بمثل هذا الكمال الاستجابات الديناميكية لتحديات الروح الانسانية ولتحديات الحياة المادية في وقت معاً . إن التقدم الروحي والمادي كانا متلازمين ليس في فكر غاندي فحسب ، بل وفي كل منهج من مناهج العمل المخلص الذي أصبح هو تجسيداً له . يجب أن نحفظ هذا الأسلوب في عقولنا عند أية محاولة لفهم غاندي .

وأنا لا أدعي أبداً أن تفسيري هو نهائي على أية حال ، أو ملزم لأي شخص . وأكون مسروراً كل السرور إذا كانت كلماتي ستجعل مستمعي ينظرون نظرة جديدة بذهن منتج الى حياة غاندي وعمله .

لقد أشار غاندي ، قبل كل شيء ، الى الواقعية الحتمية لحكومة العالم الأخلاقية . فلا الفرد ولا المجتمع ولا الأمة يستطيعون أن يعيشوا خارج نطاق القانون الأخلاقي إلا عند تعرضهم للهلاك . ولم يقر غاندي أبداً احتمال وجود اختلاف بين « اخلاقية » الفرد أو الجماعة أو الأمة . فالأفراد والأمم يجب أن يشغّلوا أدوات السياسة والاقتصاد ضمن القانون الأخلاقي ، إذا كانت الحضارة والثقافة بما يقام لهما وزن إن القانون الأخلاقي ، ضبط كل نوع من أنواع الاستغلال السياسي أو الاقتصادي أو الثقافي . كما ضبط ، على درجة واحدة من المساواة ، كل نوع من أنواع السيطرة من جانب الأفراد أو الجماعات على الآخرين . لقد كان غاندي يصر على عدم وجود اختلاف بين الأخلاق القومية أو الجماهيرية أو الفردية . إن نتائج القبول بعقيدة الممارسة العالمية لمبادىء الأخلاقية هذه بعيدة المنال ، مما يجعل قلة منا راغبة في مواجهة هذا التحدي ؛ ومع هذا فإننا إذا لم نفعل ذلك ، فهل ثمة مستقبل على الإطلاق للمجتمع الانساني ، في عالم مليء بتهديدات التنافس والتزاحم والأسلحة النووية ؟

لا شيء يعرف عن غاندي قدر اصراره على نقـــاوة وسائل تحقيق أي هدف عظيم أو غاية عظيمة مهما كانت ثورية أو ملزمة . فقد كانت الوسائل النقية لا تعني بالنسبة اليه أكثر من العمل القائم على الحب واللا عنف . ببساطة متناهية

لقد حدد اللا عنف بأنه الحب عملياً . ولهذا كان الكره والعنف وسيلتين غــير نقيتين . لقد كانت القسوة والارهاب والعنف مرفوضة تماماً . وإن واحدة من أهم الكلمات في اصطلاحات غــاندي ، وهي « الساتياغراها » ، تعني بشكل أسامي العمل المباشر غير العنيف .

دعونا نوضح بشكل لا يدع مجالاً للشك في عقولنا أن اصرار غاندي الذي لا يعرف اللين كان على الفعل اللا عنيف وليس على اللا عنف فقط . إن لا عنف غاندي كان فعلاً ، هنا والآن ، ضد كل اجحاف وظلم . ومع أن اللاعنف لهذا السبب ، هو قديم في حد ذاته قدم التلال ، فان الساتياغراها أو العمل المباشر اللا عنيف ربما لا يزيد عمره عن عمر غاندي . ولنتذكر أيضاً أن الساتياغراها ليست مجرد عمل فردي وإنما هي عمل جماعي وجماهيري . ولم يكتشف غاندي الساتياغراها فحسب ، بل نظمها وقاد ثلاث حركات عظيمة للاعنف ، تحتوي ملايين من الناس في الهند وتنقلهم من الخضوع الى الحرية ، ومن الامبراطورية البريطانية الى الجمهورية الهندية . ولا يستطيع أي تلميذ أمين للتاريخ أن ينكر أن التيار الرئيسي لنضال الهند من أجل الاستقلال يتألف من ثورات اللا عنف هذه تحت زعامة غاندي . وقبل أن يكتشف غاندي « الساتياغراها » ويمارسها ، كانت تبدو حتمية تاريخية أن يخضع الضعيف للقوي أو يهلك . وبعد غاندي لم تعــد هذه الحتمية صحيحة في تاريخنا . ففي الساتيا غراها وجد الضعيف في بدنه القوي في خلقه السلاح الفعال ضد القوي في بدنه ولكن الضعيف في خلقه . لذا ليس عن عبث وجود مريدين للساتياغراها ينظرون اليها على أنها أعظم سلاح في حقبة الانسان في معركة العدالة والحرية في كل مكان ووفق كل الظروف . وبقدر ما يزداد تفهم العالم لمعنى الساتياغراها وقوتها ، تزداد مواجهة كل ظلم واجحاف بتحد رهيب من

جانب أولئك الذين يعتبرون ضعافاً لا حول لهم ولا طول . ومن الصعب أن نجد أي ظلم أو سيطرة يستطيعان مواجهة التحدي الرهيب من جانب ملايين البشر الراغبة عن قصد في الموت دون أن تخضع .

وعندنا بعد ذلك تعليمات غاندي حول احترام كافة التقاليد الدينية العظيمة في العالم على قدم المساواة . ولقد رأينا بعين لا تخطىء أن ملايين لا تحصى من البشر في أرجاء العالم لا تزال تعيش تحت تأثير ديانة أو أخرى رغم كل تطور العلم والتكنولوجيا . لقد أراد وحدة الأديان من أجل أن يكتشف قوتها الداخلية وما فيها من تأثير اقتصادي وسياسي . ومفتاح الوحدة الدينية الداخلية هو في الاحترام المتساوي للتقاليد الدينية كافة وفي الزيادة المتروية والذهن المتفتح . فبدون روح الدين والأخلاق اللتين تؤثران على السياسة والاقتصاد كان يمكن للأديان كلها أن تموت من الضعف أو تتلاشى أمام غزو المادية ، التي تنمو كموجة مد في غمرة العلم الحديث والتكنولوجيا . كان غاندي الزعيم السياسي في عصرنا ، الذي أثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن الحوافز الراسخة في الدين يمكن أن تطلق وتجند من أجل الأهداف السامية في تحقيق الحرية الانسانية والعدالة الاجتماعية .

لقد خلق غاندي مفهوم ديمقراطية جديدة لا محيص لنا منها جميعاً إذا كنا نرغب أن نبقى ديمقراطيين حقيقيين . إن « الأفقر والأدنى والضائع » ـ اذا استشهدنا برابندرانات طاغور ـ ، كانوا من الأهمية بمقدار الأكثر تطوراً وقدره ضمن ديمقراطية ما . لقد رفض غاندي قبول الديمقراطية حكماً غير مقيد للأكثرية ، كما رفض بالتأكيد أن تكون دكتاتورية للأقلية ، مهما كانت حازمة أو ثورية . ولم يوافق أبداً على فكرة أن القطاعات الأضعف قد تخفق لأن القطاعات الأقوى قد ضيقت على الحرية والرخاء . من أجل أن تستحق الديمقراطية اسمها يجب ألا

تعامل الأقلية بعناية بالغة فحسب ، بل أن تستهدف مجموع حرية ومجموع صالح الشعب كله بدون أي تمييز في الجنس أو الطبقة . لقد نهض من أجل مجتمع لا طبقي ولا قبلي يتحقق من خلال نضال اللاعنف وتحفظه عقوبات السلام . هذا المفهوم عن الديمقراطية الجديدة الذي يصل الى أعمق مستوى بدون تحفظ يدعى « السارفودايا » . والفهم الصحيح للسارفودايا في سياق العـــالم اليوم يحمل في ثناياه أبعد آفاق الديمقراطية .

لقد نهض غاندي بدون تحفظ من أجل سلامة الفرد الكاملة وتطوره ، ولكنه أصر على أن هذا لا يمكن أن يكون إلا ضمن مجتمع غير مستغل ،مجتمع عادل كل العدل . إن أخلاقية الفرد وأخلاقية المجتمع ليستا منفصلتين . ومعيار الحضارة والثقافة عند غاندي كان العدالة المتكافئة والفرصة المتكافئة لكل انسان؛ اللتين تسمحان للموهوبين أن يرتقوا الى أعلى عليين ، واللتين تمنحان الضعفاء الفرصة الكاملة أن يرتقوا حتى أعلى درجات طاقتهم . إن كل موهبة ذهنية أو عقلية أو جسدية لدى الأكثر رقياً يجب أن تكرس تماما وبدون تحفظ لخدمة الأقل رقيا . ويجب أن يتحقق هذا من خلال التربية والتشريع ومن خلال الساتياغراها ، حيث تكون ضرورية بصورة مطلقة . هنا تكمن بذور فكرة غاندي حول الامانة أو ( الوصاية الاجتماعية Social Trusteeship ) التي ما تزال بانتظار دراسة وتحليل أكمل من قبل خيرة مفكرينا .



أبقدوري أن اسأل ، بكل تواضع وإخلاص ، هل يمكن لعصرنا الحاضر ولجيلنا أن يعرض عن مثل هذا القائد المتألق الذي جمع بين ارقى ذهن وأكبر قلب ، والذي تجسدت فيه أعمق آيات الوفاء والصدق والحنان ، مقدماً بهذا ، القوة المحركة للعمل الثوري في قالب اللا عنف ؟ فبدون فلسفة غاندي الأخلاقية التي

تنقي سياستنا وترفع من اقتصادياتنا ، وبدون لا عنف الذي يدفـــع بالأسلحة النووية بعيداً ويقود العالم الى نزع السلاح ، وبدون مفهومه عن الديمقراطية الذي يمنح الأمن والنمو لأفقر الناس وأضعفهم في المجتمع ، وأخيراً بدون التوفيق بين حرية الفرد وحرية المجتمع والأمة ، وهو ما ناهض من أجله ، ليس ثمة سوى أمل ضئيل في انقاذ الجنس البشري . فإما أن يكون من ميزة هذا القرن أن يصغي لغاندي ويقفز الى نظام اجتماعي جديد وعالمي من العدل والمساواة والسعادة ، أو تكون طامة عصرنا الكبرى بتجاهله والسير بثبات نحو حافة الهاوية التي لا يوجد فيها سوى ترسانة الأسلحة النووية . أنا لا أدافع عن أي تسليم أعمى بكل ما جاء به غاندي ، ولكنني أدافع ، بكل ما عندي من قوة ، من أجل دراسة أكمل وفهم أعمق لما نذر نفسه من أجله في عصرنا برسوخ وبطولة ودون نكوص.

# مدخل إلى فلسفة غاندي

ندره اليازجي

« سيكون صعباً على الاجيال القادمة ان يصدقوا بأن انساناً كهذا ، بدمه ولحمه، قد سار على هذه الأرض » .

## انشتاين

« عاش غاندي من أجل تحقيق السلام والانسجام والمصالحة الوطنية ، وكرّس حياته الثمينة من أجل تطبيق هذه المثاليات . ان لب تعاليمه سيظل حية لكل الأجيال والشعوب وذلك لأنها تتجاوز الزمان والمكان . اننا كثيراً ما انحرفنا عن الطريق الذي شقه لنا . واني متيقن من انه ، لكي نحيا ونظل أمة قوية ومتحدة ، يتوجب علينا أن نضع نصب عيوننا مبادئه الحكيمة » .



## ذاكر حسين

« مات غاندي ... وبموته شعر الشعب الهندي باليتم واليأس . جميعنا نشعر بهذا الشعور ، ولست ادري متى يحين وقت تخلصنا منه . وهناك الى جانب هذا الشعور ، شعور آخر بالفخار والاعتزاز والامتنان بأن شخصاً جباراً مثله قد وهبناه في هذا الجيل . وفي العصور القادمة ، سيفكر الناس بهذا الجيل الذي سار فيه رجل الله هذا على الارض ، وسيفكر فينا ، نحن الذين ، مها كنا صغاراً ، نستطيع ان نسير في طريقه ويمكننا ان ندوس تلك الارض المقدسة التي وطأتها قدماه ...

## نهرو

يعتبر الدخول الى فلسفة غاندي دراسة للشخصية الانسانيـــة ولمعنى وجودها في هذا العالم. فقد كان غاندي مثال الانسان الروحي والخلقي والاجتماعي والسياسي والاقتصادي. انه كان مثالاً حياً للانسان الماهيّة والجوهر، انسان الروح، وتطبيقاً عملياً له. وإننا نستطيع القول إنه حقق ملكوت الله على الأرض.

ويختلف غاندي عن غيره من المنادين بالخلاص والأبدية. فبينا ينادي أولئك المصلحون الاخلاقيون بملكوت سماوي منفصل عن ملكوت أرضي، ينادي غاندي بملكوت سماوي لا يطبق الا في المجتمع الانساني ولا يتحقق الا فيه. ولذلك لم يتخذ هذا الانسان الفاضل من العزلة ملاذاً له ولا من الانفراد والانقطاع عن الآخرين وسيلة للخلاص، بل رأى الخلاص في المجتمع، في عالم الناس. وآمن بأن خلاص الانسان يعني تحقيقه لوجوده الاجتماعي.

ولا يعتبر غاندي الشخصية الانسانية شيئاً منفصلاً عن الشخصية الاجتماعية. فالمجتمع، في رأيه، حقل لتطبيق الأخلاق والروح والفضيلة والقيم الفكرية كلها. وقد قاده مبدأه هذا إلى حمـــل مشعل التحرر الوطني والتحرر الانساني من كل خوف وعنف وكره، كما قاده إلى إعلان جهاد على المساوىء الاجتماعية حتى يتحقق المجتمع الفاضل. ولا نبالغ ان قلنا ان غاندي كان المطبق الوحيد لمثل نادى بها فلاسفة أمثال أفلاطون والفارابي. ولهذا السبب ذاته، فقد جمع هذا الانسان العظيم الذي حقق انسانيته خير تحقيق بـــين القداسة المجردة والقداسة المحققة، بين المثال والواقع، بين السياسة ومحبة الحقيقة.

ولم يكن غاندي مثل الفلاسفة الآخرين الذين ظلوا في أبراجهم العالية ينادون بالاصلاح الفكري والروحي والمادي للمجتمع. فهو لم يفعل مثل هؤلاء،

ولم يضع المؤلفات الكبرى ، ولم ينشيء أكاديمية أوليمبوس ، بل نزل إلى الجماهير ، الى المنبوذين ، وطبق آراءه ونفذها ، وعاش حياته الروحية دون أن يكون قد تسنّم مركزاً اجتماعياً . وفي عمله هذا ، نحت غاندي آراءه ومثله في صدور الهنود وسطّر أفكاره في عقولهم ، وأثار فيهم قواهم الوجدانية التي فعلت فيهم ، عندما استجابت لندائه ، فعل الروح في الجسد .

ونحن نعتقـــد ان البشرية لم تفهم غاندي حق الفهم ، ولم تدرك مغزى وجوده ادراكاً كافياً . ولو أنها فعلت ، لوجد الكثيرون الذين يتوجب عليهم أن ينادوا بما نادى به غاندي ، وأعني أن يطبقوا مثالية الانسان في واقعية الانسان . وسوف تظل هذه البشرية تتخبط في فوضى ماديتها وفي تعاستها حتى تقوم بتجربة غاندي .

* * *

في حديثنا هذا سندرس فكر غاندي في جوانبه العديدة . وسنشير ، بشكل خاص ، الى القواعد الاجتماعية الرئيسية التي أرسى عليها فلسفته العظيمة .



## ١ ـ ماذا يقول غاندي عن نفسه :

« لست سياسياً في ثوب قديس . ولكن ، لما كانت الحقيقة هي الحكمة الأسمى ، فإن أعمالي تبدو ، بعض الأحيان ، بأنهـــا تنسجم مع فن السياسة . لكنني ، كما أعتقد ، مجرد من كل سياسة ما عدا سياسة الحقيقة والاهيمسا . ( المحبة واللاعنف ) . ويبدو لي انني افهم مثالية الحقيقة أكثر من مثالية الاهيمسا . وتخبرني تجربتي بأنني إن افلت الحقيقة من يدي ، فإنني لن اكون قادراً على حل معضلة الاهيمسا . ومع ذلك ، فإن الحقيقة والاهيمسا شيء واحد .

« أعلم ان طريقي صعب ويتوجب علي اجتيازه . فعلي ان أخلص نفسي الى درجة الصفر . وطالما ان الانسان لا يضع نفسه آخر الجميع، فإنه لن يخلص؛ فالأهيمسا هي الحد الأدنى للتواضع .

« فلو كان بإمكانـــا محو « الأنا » و « ملكي » من الدين والسياسة والاقتصاد ... لكنا أحراراً ولحقنا السماء على الأرض . إن تابع الحقيقة لايمكنه ان يكون انانياً . ولا يكاد ان يجد المضحي بنفسه في سبيل الآخرين وقتاً لنفسه .

« ان خدمة الفقير كانت رغبتي القلبية التي ألقت بي بين الفقراء وجعلتني اتحد بهم . لقد أحببت الفقير كثيراً طوال حياتي ، وشعرت بأنه قريبي ورفضت كل تمييز بيني وبينه » .

« وبالنسبة لي يقع طريق الخلاص ( موكشا ) في العمل الدائب في خدمة بلادي والانسانية، ولذلك فإني اريد أن أتحد بالجميع وبكل شيء .

« ان حياتي كل لا يتجزأ ، وتتداخـــل فعالياتي ببعضها . وتنشأ هذه الفعاليات من محبتي للانسانية » .

« عندما أرى انساناً خاطئاً أقول : انني اخطأت مثله . وعندما أرى شهوياً أقول : انني اشتهيت مثله . وبهذه الطريقة أشعر بقرابتي لكل انسان في هذا العالم ، وأشعر بأنني لن اكون سعيداً ما لم يكن اكثرنا ادقاعاً سعيداً » .

« يجب أن لا تعني اختلافات الرأي العداء . واني اعطف على كل من يعارض مبادئي واميل اليه » .

« لست إلا باحثاً عن الحقيقة . واعترف بأنني وجدت طريقاً لها . لكنني لا أدعي بأنني وجدتها . ان ايجـــاد الحقيقة بتمامها يعني ان يحقق الانسان ذاته ومصيره ، أي أن يصبح كاملاً . لكنني اعي نقائصي ، وهذا هو ينبوع قوتي .

« إنني أطلب من أبناء الهند أن لا يكون لهم انجيل إلا انجيل التضحية بالذات . »

« رسالتي هي أن أعلم الساتياغراها ( التعلق بالحقيقة ، المقاومة اللاعنفية للباطل ) التي هي نتيجة حتمية للاعنف والحقيقة . واني أقول بأنه ليس هناك علاج لأمراض الحياة إلا اللا عنف . »

« عندما أصبحت عاجزاً عن القيام بالشر وأصبح فكري العالمي الشامل مجرداً من الأذى ، استطاع لاعنفي ان يحرك قلب العالم . »

« لا أشعر بأنني ( مهاتما ) . ولا أدري بأنني واحد من أكثر أبناء الله تواضعاً . لقد آلمني هذا اللقب . ان منحي لقب ( مهاتما ) شيء تافه . لقد نتج عن نشاطاتي الخارجية وسياستي التي هي أدنى جزء فيّ ، لذلك فهي فانية . إن ما يهمني هو تعلقي بالحقيقة واللاعنف والعفة التي هي الجزء الحقيقي والأعلى فيّ . فالحقيقة أعز علي من كوني ( مهاتما ) » .

« ان صوت الله والضمير والحقيقة أو الصوت الداخلي ، أو ( الصوت المنخفض الهادىء ) يعني أمراً واحداً . هو هذا الصوت الذي سمعته ، ولم يكن صدى لخيالي او وهمي » .



## ٢ — الحقيقة :

الحقيقة ، في نظر غساندي ، هي الصوت الداخلي . وليس باستطاعة أي انسان ان يجد هذه الحقيقة ما لم يكن متواضعاً غاية التواضع . فالحقيقة والمحبة — أهيمسا — شيء واحد ولا قيمة لغيرهما .

فالحقيقة هي المبدأ الحاكم الذي يتضمن مبادىء أخرى عديدة . وليست هذه الحقيقة حقيقة ، الكلمة بل حقيقة الفكر أيضاً . وليست هي حقيقة إدراكنا

النسبية، بل هي الحقيقة المطلقة ، المبدأ الأبدي الذي هو الله . ولهذا ، فإن غاندي يعبد الله لأنه الحقيقة .

والبحث عن الحقيقة سهل وصعب . فهو صعب على المتعجرف وسهل على البريء . لذلك كان على الباحث عن الحقيقة ان يكون متواضعاً كالتراب . والحقيقة كشجرة كبيرة تزداد نمواً وإثماراً كلما زاد غذاؤها .

ويعتقد غاندي بأنه من الخطأ أن نتوقع وجود اليقين في هذا العالم، حيث أن كل شيء ليس يقيناً إلا الله . فكل ما يحدث حولنا ويبدو هو زائل وليس أكيداً . لكن هناك كائناً سامياً يختبىء ويسمى يقيناً . فاليقين او الحقيقة هي الله .

وقد إستطاع غاندي ان يقيم علاقة بين الحقيقة والجمال . فلما كان للأشياء مظهران : خارجي وداخلي ، فإن الداخلي يعبر عن الحقيقة والخارجي يساعد على إظهارها ، ولذلك يكون الفن ، وهو مظهر خارجي ، تعبيراً عن الروح . فالحقيقة هي الشيء الأول الذي نبحث عنه ، والجمال والخير يتحققان فيه . ولذلك نجد الجمال في الحقيقة أو من خلالها . وليس الجمال الحقيقي إلا صفاء القلب ونقاءه .

### ٣ – انعدام الخوف :

يعتقد غاندي أن اللاخوف هو المطلب الأولي للروحانية وذلك لأنه يستحيل على الجبان ان يكون أخلاقياً . فحيث يوجد الخوف ينعدم الدين . فانعدام الخوف تربة صالحة لنمو الفضائل النبيلة . واللاخوف يعني التحرر من أنواع الخوف الخارجي ، الخوف من المرض ، الخوف من الأذية الجسدية أو

الموت ، الخوف من التجرد من الملكية ، الخوف من فقدان الأعزاء ، الخوف من فقدان السمعة ... الخ .

ولا يتحقق إنعدام الخوف إلا بتحقيق السامي ( الإله ) ذلك لأن التحقيق هو قمة الحرية من الأوهام . وتتوقف المخاوف الخارجية عندما تقهر المخاوف الداخلية العنيفة ، كالغضب والحماقة . ولا تختفي المخاوف التي تدور حول الجسد إلا عندما تحقق عدم الإرتباط بالجسد . وهكذا يكون الخوف من نسيج وهمنا. ولا يكون للخوف مكان في قلوبنا عندما ننفض عنا الإرتباط او التعلق بالغنى ، بالعائلة وبالجسد . وهذا لايعني بأن يتم إلغاء هـذه الأمور ، بل يعني ان يتبدل سلوكنا وموقفنا منها .



لكن هناك خوفاً لانستطيع تجنبه ، هو خوف الله . ففي خوف الله يبطل خوفنا من الانسان . فعندما نترك الخوف يعمل فينا ، تموت الحقيقة أو تتضاءل . فالقاعدة الذهبية هي ان نعمل دون خوف في سبيل مانؤمن به أنه حق. ان إنعدام الخوف لايعني التباهي او نزعة العداء . انه هدوء العقل وسلامه ولهذا لابد لنا من ايمان بالله . فالشجاعة ليست صفة جسدية بل روحية .

### ٤ ـ الايمان :

يعتقد غاندي ان الايمان يقودنا وسط البحار العاصفة . وليس هذا الإيمان إلا دعياً حياً لله في داخلنا . ومن يحقق هذا الإيمان فانه لن يحتاج لشيء . وبدون هذا الإيمان لايكون للعالم معنى . ولا يكون الإيمـان زهرة تعصف بها أقل العواصف بل هو الهيمالايا التي لاتتبدل ولا تتزحزح .

وينبع إيمان غاندي من اعتقاد راسخ بأن التجربة جعلته يقر بحدود العقل. فالعقلانية مارد فظيع يدعي لنفسه القدرة الكلية . ولذلك يعتبر عودة الى الوثنية

كل محاولة لإعطاء صفة القدرة الكلية للعقل . ولكن غاندي لاينادي بالقضاء على العقل ، بل يعلمنا حدوده . ولا يقول ان العقل يناقض الايمان بل إن الإيمـــان يتجاوزه ويتسامى عليه . فالإيمـــان شبيه بالحاسة السادسة التي تعمل بدون العقل .

أما الدين في نظر غاندي فليس هو الهندوسية ،بل هو الدين الذي يتجاوزها، الذي يعدل طبيعة الانسان ويربطـــه بالحقيقة في الداخل . ولا يشير الى الدين كطقوس شكلية أو الى الدين الذي يعتمد العسادة ، بل يعني الدين الذي يشتمل على كل الأديان ، والذي يجعلنا نجابه خالقنا وجهاً لوجه .

فما هي ديانة غاندي !

ليس الدين في رأيه ، حدود جغرافية وذلك لأن لكل إنسان مكاناً فيه . انه دين عالمي يتجاوز مفهوم العرق واللون . ولهـــذا لايربط غاندي بينه وبين الوطنية حتى لايتحجر . فالدين شعور إنساني كامل ( هودهارما ) التي تعني الواجب الديني في عدم إيذاء الآخرين ، وفي القضاء على العـــداء ،وفي تحقيق مبدأ رفض الشهوات والشر ، وحب العالم .



ويؤمن غاندي بتعدد الديانات ظاهرياً وبوحدتها باطنياً . ويعتبرهـا طرقاً مختلفة تلتقي في نقطة واحدة . ولهذا فإنه لايعتقد بإمكانية وجود دين واحد في العالم . ولما كانت هذه الحقيقة فإنه يقدم احترامه لجميع الأديان . فهو يؤمن ان روح الأديان واحد على الرغم من وجوده بأمثال عـــديدة . ويؤمن ان حكماء الناس يرون الروح ويتغاضون عن الأشكال .

ان غاندي يحب جميع الناس الذين ينتمون الى أنواع إيمـــان مختلفة، ويدعوهم الى حياة أفضل وذلك باحتكاكهم ببعضهم وبمحبة بعضهم . فالعالم مكان

صالح لتلاقي الأديان والعيش بسلام ووئام . ولما كان الإيمان بالله حجر الزاوية في كل الأديان فان وحدتها قائمة على هـــذا الزعم . وليس من المستغرب ان يرفض غاندي سيطرة دين واحد على الأديان الأخرى .

وفيما يتعلق بالدين والسياسة يقول غاندي ان الحياة هي كل متحد . فلا ينقسم العقل الانساني أو المجتمع الإنساني الى أقسام تسمى إجتماعيـــة وسياسية ودينية واقتصادية . فالحياة الانسانية كل لايتجزأ ، ويستحيل وضع خط أوحد بين مقاسمها أو بين الأخلاق والسياسة . فحياة الانسان اليومية لاتنفصل عن كيانه الروحي . وكلاهما يتفاعلان معاً .

ويعترف غاندي بأن السياسي فيه لم يسيطر عليه كلياً . لذلك لم يكن تدخله في السياسة إلا " لأن السياسة هي الحقل الذي تطبق فيه الأخلاق والدين . فلكي نعاني روح الحق الكلية الانبثاث ، علينا ان نحب أحقر الكائنات كما نحب أنفسنا . واذا كان علينا ان نحقق هذا المثال فإنه يتوجب علينا ان نظل داخل حقل الحياة . ولهذا فإن تكريس الانسان نفسه للحقيقة يقوده الى حقل السياسة . ولا يستطيع الانسان ان يحيا حياة دينية روحية إلا اذا وجد نفسه مع الانسانية كلها ، بل لايستطيع ان يفعل هذا ان لم يشارك في الحياة السياسية . وهكذا لا نستطيع ان نقسم العمل الديني او السياسي او الاقتصادي او الاجتماعي الى مقاسم عديدة . فالانسان لا يعرف الدين وهو منعزل عن الحياة الاجتماعية . فالمجتمع هو المكان الذي تتحقق فيه الفضائل الروحية والخلقية . فلا يمكننا ان ندعي بأننافضلاءأو اننا متدينونأوأخلاقيون ما لم نكن نحقق انسانيتنافيالمجتمع .

٥ ـ قضية المنبوذين :

المنبوذ في الهند هو كهدف لا ينتمي الى طبقة او مذهب Outcaste ،

وكل من يعتبر دنساً لا يلمس Untouchable. فالمنبوذ مجرد من كل صفة انسانية ودينية وسياسية وطبقية . فلا يحق له ان يعاشر إلا المنبوذين امثاله ولا يتزوج إلا منهم ؛ وينعدم وجوده بوجود الطبقات الأخرى . فالمنبوذ في الهنـــد يقابل العشار والخاطىء في فلسطين ايام المسيح .

هناك اعتقاد سائد عند الهنود – وبوسعنا القول بأنه اعتقاد خاطىء – بأنه يتوجب على المنبوذ من لاطبقة له ان يقوم بعمله خير قيام ، فيرضي الطبقات العليا ، وذلك لكي يأتي من طبقـــة أفضل متى ولد من جديد . وهكذا يحتم المجتمع الهندومي ان يظل المنبوذ منبوذاً حتى يقوم بالدور المفروض عليه في السلم الاجتماعي .

وان نحن اردنا ان نعلم حقيقة المنبوذ وكيف انبثق وجوده في المجتمع الهندومي ، فانه يتوجب علينا ان نلم بعض الشيء بتعاليم الهندوس ، وعلى رأسها شريعة مانو .



يُعتقد ، كما هو قائم في شريعة مانو ، ان مانو قسم المجتمع البشري الى طبقات اربع : طبقة البراهمين Brahmin وهي الطبقة العليا ، طبقة المتدينين . طبقة الكشاتريا Kshatriya ، وهي طبقـــة المحاربين الأبطال . طبقة الفايشيا Vaishya او شودرا Shudra ، وهي طبقـــة المزارعين والتجار . وأخيراً طبقة اتيشودرا Atishudra وهي طبقة العمال .

وكما نرى ان هذا التقسيم لا يختلف كثيراً عن تقسيم بعض فلاسفة اليونان للمجتمع البشري . ولكنه ، ولسوء الحظ والفهم ، أدى ، ليس بسبب التقسيم ، الى تجريد الطبقة الأخيرة من وجودها .

ولقد جاهد غاندي في سبيل تحرير هذه الطبقة التعيسة التي أصبحت تشير الى النجاسة والقذارة . وبالفعل ، فقد حررها هذا القديس العظيم وجعل من

أفرادها اسياداً مثل غيرهم . وأما طريقته فقد قامت على اعادة تفسير شريعة مانو ومبادىء الهندوس . ولهذا فقد أصر على ان التقسيم القائم لا يشير الى تفرقة او الى سيطرة طبقة على طبقة ، بل يشير الى تعاضد الطبقات وتماسكها . وحتى لو أبقينا على نظام التقسيم ، فان كل انسان يقوم بدوره المرتبط به . ولذلك احترم غاندي العمل واعتبره مقياس الواجب الاجتماعي بغض النظر عن ماهيته او نوعيته ولما كانت حياة الانسان تقوم على عمله فإن له ككل انسان حقه في الوجود الاجتماعي فلا تستطيع اليد ان تتعالى على الرجل او الرجل على اليد ، ولا يستطيع الرأس ان يتعالى على القلب . المجتمع كلٌ متحد باقسامه وأعماله . وقد أدت هذه النظرة الى تحرير المنبوذين في الهند .

قال غاندي : « ان حبي للناس ايقظت فيّ قضية المنبوذين منذ صباي الباكر . فقد بدأت ثورتي لما قالت لي أمي : عليك يا ولدي ان لا تلمس هذا الولد لأنه منبوذ .

« ولو كان علي ان أعود الى الحياة مرة أخرى فاني أتوق لأن أولد منبوذاً ، وذلك لكي اتمكن من مشاركة المنبوذين احزانهم وآلامهم وان أتحمل نير العبودية المفروضة عليهم . وبهذه الطريقة أعمل على تحرير نفسي وتحريرهم من حالتهم التعيسة » .



### ٦ ـ اللاعنف :

يقوم اللاعنف على المبادىء التالية :

أ ـ اللاعنف شريعة الجنس البشري ، وهذا أعظم بكثير وأسمى من القوة الغاشمة .

ب ـ اللاعنف شريعة من يؤمن بإله المحبة .

ج ـ اللاعنف يقدم للانسان حماية كاملة لفكرة احترامه الذاتي ولشعوره بالشرف والنبل الانساني ، ولكنه لا يقدم دائماً حماية لملكية الأرض أو الثروة المنتقلة ـ على الرغم من ان ممارسته العملية تبرهن على انه رادع أقوى من حماية

الناس المسلحين للنبل والشرف . فاللاعنف ، في طبيعة الأشياء ، لا يدافع عن المكاسب التي تم الحصول عليها بطرق سيئة وعن الأعمال اللا أخلاقية .

د ـ على الأمم والأفراد الذين يرغبون في ممارسة اللاعنف ان يتهيأوا للتضحية بكل مالهم ماعدا الشرف . لذلك يناقض اللاعنف فكرة الاستيلاء على البلدان الأخرى .

هـ ـ اللاعنف قدرة يمارسها جميع الناس بالتساوي ـ الأولاد والشباب والرجال والنساء ، بشرط ان يكون عندهم ايمان بالله المحبة وأن يتصفوا بمحبته ، لا تفرقة فيها ، للجنس البشري كله . فعندما نقبل باللاعنف شريعة للحياة ، فانه ينبعث في كل الاعمال وكل الحقول .

و ـ يخطيء الكثيرون باعتقادهم ان اللاعنف لا يطبق الا في المجالات الفردية . إنما اللاعنف وسيلة للجماهير ايضاً .



اللاعنف ، في نظر غاندي ، لا يعني الخضوع لإرادة فاعل الشر او المتسلط ، بل يعني ان نلقي بثقل روحنا كلها ضد ارادة الظالم . واذا سار الانسان على هذه الشريعة ، فإنه يكون باستطاعة فرد واحد ان يتحدى قوة امبراطورية ظالمة وذلك لينقذ شرفه ودينه وروحه ، وليبني اساساً جديداً لتلك الامبراطورية الساقطة او ليعيد بناءها . فاللاعنف قوة ايجابية . وتقع ايجابيتها في أنها وسيلة حقة للصراع والجهاد ضد الشر والظلم ، وهي أكثر فعالية من اهراق الدماء والحروب التي تزيد الشر .

ماذا فعل غاندي لكي يحرر الهند ؟ وماذا علّم الهنود ؟

تفهّم غاندي العلل الرئيسية لوجود الانكليز في الهند . فطلب من الشعب الهندي ان يقاطعوا كل ما يمت الى الانكليز بصلة ، وعلّمهم ان لا يدفعوا

الضرائب بشرط ان لايتخذوا من العنف وسيلة . ونصحهم بالعودة الى الصناعات اليدوية البسيطة وان يعتمدوا عليها ليبدأوا من الصفر ويستغنوا عن كل مايستوردونه. وقد حقق غاندي ، مع الشعب الهندي ، فلسفة اللاعنف والعصيان المدني في أجمل صورها . ولم يعكر صفو غاندي إلاّ بعض الأمور الداخلية ، كالمشاحنات التي كانت تقع بين الهندوس والمسلمين . وفي حالة من هذا النوع كان غاندي يصوم ، ويستمر في صيامه حتى تعود العلاقات الطيبة الى طريقها السديد . لقد علّم غاندي أن تعيش الأكثرية ، الهندوس ، مع الأقلية ، المسلمين ، بسلام ومحبة . وهكذا انتصرت فلسفة اللاعنف ، وانتصر غاندي ، وانتصرت المحبة .

يقول غاندي :

« اني مثالي واقعي . واللاعنف ديني ومذهبي . اللاعنف شريعة الجنس البشري ، والعنف شريعة الغاب ، فالروح غافلة في الحيوان ولذلك فإنه لا يعرف إلا شريعة القوة المادية . ان عزة الانسان وكرامته تتطلب منه الطاعة لشريعة أعلى وأسمى ، هي قوة الروح .

« القديسون : Rishis ( الفقراء ) الذين اكتشفوا شريعة اللاعنف وسط العنف كانوا أكثر عبقرية من نيوتن . وكانوا عاربين اشداء اكثر من ولنقتون . لقد اهملوا السلاح لأنهم عرفوا لا جدواه ، وعلموا عالماً متعباً بأن خلاصه يتحقق باللا عنف وليس بالعنف » .

« انني أعرف طريقاً واحداً هو طريق الأهيمسا . أما طريق الهيمسا فإنه ليس طريقي ، لذلك لا أميل الى استغلال القوة .

« تعلمت مثالية اللا عنف في زوجتي وذلك عندما حاولت ان اخضعها لارادتي الغاشمة . لقد كانت مقاومتها العاقلة لإرادتي ، من جهة ، وخضوعها الهادىء للألم الناتج عن حماقتي ، من جهة ثانية ، مرشداً لي جعلني أشعر بالخجل من نفسي . فشفيت من حماقتي ومن سوء تفكيري بأنني قد ولدت لأحكمها » .

وحول موضوع المجتمع اللاعنفي يقول غاندي :

« أعتقد ان اللاعنف ليس فضيلة فردية، بل هو فضيلة اجتماعية كالفضائل الأخرى. فاللاعنف ينظم العلاقات الاجتماعية، والمجتمع يتحد باللاعنف كما يتحد العالم المادي بالجاذبية .

« لا تستطيع الحكومة ان تكون لا عنفية تماماً . وذلك لأنها تمثل الشعب كله . واني اؤمن بامكانية تحقيق مجتمع لا يكون العنف فيه مكان .

« ليس هناك في العالم دولة بدون حكومة . لكنني اعتقد بأنه باستطاعة الهند ان تبني دولة بدون حكومة .

« ان علم الحرب يقود الانسان الى الدكتاتورية ، أمـا اللا عنف فإنه يقود الى الديموقراطية الصرفة .

« ليس بامكان اللاعنف ان يقبض على ناصية الحكم ، وليس بإمكانه ان يهدف اليه . لكنه يستطيع ان يفعل اكثر من ذلك: انه يستطيع ان يسيطر على القوة وان يرشدها » .

وفي مجال العنف الشعبي يقول :

« تعلمني تجربتي ان الحقيقة لا تزدهي بالعنف . لذلك فإن من يؤمنون بعـدالة قضيتهم يحتاجون الى ينبوع من الصبر لا ينضب لكي يحققوا العصيان المدني .

« اني اناهض العنف الحكومي بقدر ما أناهض العنف الشعبي .

« اني اقاوم العنف وذلك لأن الخير الذي ينتج عنه مؤقت وزائل . اما الشر الذي يفعله فإنه دائم وابدي » .

وفي حقل التوسع وتحقيق الاطماع يقول :

« علي ان أحيا ، وان اكون عبداً او سيداً لأمة أو لأي انسان . علي أن أحقق استقلال مطلقاً او علي ان أفنى .

« ان ايماني شديد بالمقاومة السلبية وذلك من أجل ضمانة الحرية ، واني أفضل ان اموت على ان أطيع ارادة غاشمة تحرمني من استقلالي » .

## ٧ ــ الساتياغراها:

هي محبة الحقيقة أوهي المقاومة اللاعنفية للاحقيقة او للعنف .

يعتقد غاندي بأن الساتياغراها سيف له اكثر من حدين . هي سيف يبارك من يستعمل ومن يستعمل من أجله . وبدون اهراق نقطة دم واحدة يعطي نتائج عظيمة . ويعتقد غاندي ايضاً ان المقاومة السلبية وسيلة هامة لإذابة القلب المتحجر . وينكر ان تكون هذه المقاومة سلاح الضعيف ،وذلك لأنها تحتاج لشجاعة اكبر من الشجاعة الوهمية في حقل المقاومة المادية . ففي رأيه

ان مقاومة كاملة تصدر عن انسان واحد تكفي لكسب معركة الحق والصواب ضد الباطل والخطأ . فالمسيح وكراغر ولاتيمر وريدلي وتولستوي وسقراط وغيرهم كانوا أفراداً حملوا مشعل الشجاعة الحقة ، المقاومة السلبية . فقد تسلح هؤلاء بقوة الروح لابقوة الجسد . ولذا ، فإن الشعب الذي يتسلح بهذا السلاح ، ينتصر على مساوئه كلها .

ولهذا السبب ، يدعو غاندي الى العصيان المدني . فلكي يكون العصيان مدنياً عليه ان يتصف بالاخلاص وباحترام الغير وبالعفة وعدم التحدي ، كما يجب ان يقوم على مبدأ أُحسن فهمه ، وان لايكون انانياً او يؤسس على الارادة السيئة او الكره . لذلك كان العصيان المدني أنقى انموذج للاضطرابات الدستورية . فهو يعتبره الحق الطبيعي للمواطن ، حتى المواطن الذي يبطل ان يكون انساناً إن هو تخلى عنه . والعصيان المدني لايقود الى الفوضى . ومن هذه الزاوية ، يطيع الساتياغراهي قوانين المجتمع بذكاء وكما يطيع ارادته الحرة ، وذلك لأنه يعتبر هذه الطاعة واجباً مقدساً .

وفي هذا المجال يقول غاندي :

« الساتياغراها هي المحو الكامل للذات ( الانانية ) ، هي التواضع الكامل والصبر الكامل والايمان الكامل . انها جزء ذاتها .

« الساتياغراها بحث دائم عن الحقيقة وتصميم على الوصول إليها .

« هي قوة تفعل بصمت وبطء من حيث الظاهر . وفي الواقع ، لاتوجد قوة في العالم أسرع منها او اكثر ايجابية .

« الساتياغراها الرقيقة لاتجرح . انها ليست نتاج الغضب او الخبث . انها ليست حقودة او متباهية . انها مقاومة مباشرة للإلزام . وهي استعاضة تامة عن مبدأ العنف .

« ان جهاد الساتياغراها ينبثق عن القوي بروحه ولاينبثق عن الشكاك او بليد الذهن . انها تعلمنا فن الحياة والموت ، ولما كان الموت حتماً فان مايميز الانسان عن الحيوان هو جهاده الواعي والوجداني لكي يحقق الروح فيه .

« لاتنتصر الساتياغراها بالإرادة السيئة ، لأن الذين يعتقدون بأنهم ضعفاء يعجزون عن المحبة » .

## ٨ - التجرد من الملكية :

ينادي غاندي بمبدأ التجرد من الملكية . وينبع نداؤه هذا من ايمان راسخ في حكمة الديانة الهندوسية والبوذية . فالتعلق ، الذي هو رغبة يؤدي الى الألم والشر . فالألم نتيجة حتمية للتعلق . فاذا تعلق الانسان بالملكية او رغب بها انساقت قوى عقله وروحه وراءها ، فيناهض العالم من أجلها وبالتالي يفقد انسانيته ويضيع على نفسه فلسفة المحبة . ولذلك فقد رفض غاندي مبدأ الملكية لأنه لايريد أن يكتنز كنوزاً على هذه الأرض . وعلى الرغم من أنه كان ضد الملكية ، وقد جرّد نفسه منها ، لكنه لم يستعمل مبدأ العنف مع الأغنياء . فهو يعلمهم أن يحولوا أموالهم الى ماقيه خير الانسانية ، وان يكتفوا بالقدر الممكن منها . فالثروة الحقة ، في نظره ، لاتعني ان يحتفظ الانسان بستين تفاحة بل ان تكون عنده تفاحة او تفاحتان . ومازاد على الواحدة او الاثنتين يعتبر شراً او ذلك لأنه حرمان للآخرين . يقول غاندي :

« لما وجدت نفسي وسط معركة الدوامة السياسية ، سألت نفسي : كيف أبقى نقياً لاتدنسني اللاأخلاقية واللاحقيقة وكل مايسمى بالمكاسب السياسية ... لقد خلق هذا السؤال صراعاً عنيفاً في داخلي بادىء الأمر مما أدى الى نزاع خفي مع زوجتي وأبنائي . لكنني توصلت الى هذه النتيجة : ان كان من واجبي خدمة الشعب الذي ألقيت نفسي في خضمه والذي أشهد على متاعبه يوماً بعد يوم ، فانه من الأهمية أن أتخلى عن كل ثروة او ملكية .

« تجردت من كل شيء . لكن تقدمي في حقل التجرد كان بطيئاً لأن البداية كانت مؤلمة ، الانتصار على الذات ، أما في النهاية فقد شعرت بالغبطة .

« وشعرت كأن حملاً ثقيلاً قد سقط عن كتفي ، كاشعرت بأنني أصبحت استطيع السير براحة وان اقوم بواجبي او بعملي في خدمة ابناء وطني بغبطة لاتوصف . وبالفعل أصبح امتلاك شيء ما عبئاً ثقيلاً .

« وباكتشاف علة غبطتي ، اكتشفت ايضاً بأنه يلزم ان ادافع عما امتلكه ضد العالم كله ، إن أنا احتفظت بشيء . وهكذا انتصرت على عدائي للآخرين بمجرد التخلي عن الملكية .

« لعل العالم يهزأ من تجردي هذا . لكنني اعتبر خسارتي هذه كسباً ايجابياً . وانني لو نافسني الآخرون في هذا المضمار ، في قناعتي . فقناعتي هذه هي كنزي الثمين . ومع انني ابشر بفلسفة الفقر لكنني انسان ثري .

« ان مدنيتنا وحضارتنا لاتعتمدان على مضاعفة حاجياتنا ورغباتنا ، بل على تقييد هذه الحاجيات ، وذلك بالنكران الذاتي .

« اللاملكية مرادفة للاسرقة . فالشيء الذي لايعتبر مسروقاً في أساسه يجب ، مع ذلك ، ان يصنف كملكية مسروقة ، إن كنا نملكه ، ولم نكن نحتاج إليــه . والباحث عن الحقيقة لايجوز تمسكه بأي شيء للغد . ولذلك فإن الاغنياء يقتنون الاشياء الكثيرة التي لايحتاجونها والتي تهمل وتضيع ، بينما يجوع الملايين حتى الموت وهم بحاجة ماسة الى هذه الاشياء الضائعة .



« لو ادّخر الانسان مايحتاجه فقط ، لما وجدت حاجة ، ولعاش الجميع بقناعة وسعادة . فالاغنياء لايقتنعون كالفقراء ولا يكتفون مثلهم .

« على الاغنياء ان يتحلوا بفضيلة اللاملكية وذلك وفق روح انسانية تنبت في شعور عالمي بالمحبة . فلو أنهم احتفظوا بثروتهم ضمن حدود الاعتدال لشبع الجائع ولتعلّم امثولة القناعة . »

**٩ ـ العمل :**

يعتبر غاندي العمل شريعة سنها الله للانسان ليكون وسيلته الوحيدة للحصول على خبزه اليومي . كما يعتبر ان كل من يحصل على خبزه بدون عمل يكون لصاً .

ولهذا السبب فإن هناك نزاعاً بين رأس المال والعمل ، بين الغني والفقير ، ولكن غاندي يريد ان يضيق الشقة بين هذين القطبين . فهو ينادي بكسب الخبز اليومي الذي يعتبر قوام الانسان الشريف والنبيل . لكنه ، على عكس بعض المتطرفين من المفكرين السياسيين ، يعمل على اقامة انسجام في المجتمع الانساني؛ فهو لايدعو الى ثورة اقتصادية بقدر مايدعو الى ثورة انسانية ووجدانية . انه يثير الاغنياء والرأسماليين لكي يتنازلوا عن انانيتهم المتعصبة . وفي الحد الأدنى ، يعلمهم أن يحولوا ثرواتهم الى نفع اجتماعي.

لكن غاندي لاينكر على العمال حق الاضراب والمطالبة بأجور عادلة. لكن هذا الحق لابد وأن يتوقف عندما يقبل الرأسماليون مبدأ المفاوضة . ومن ناحية أخرى يحث غاندي الحكومة على تبني العدالة والمساواة .



١٠ -سارفودايا:

يؤمن غاندي بوحدة الانسان . ولهذا يعتقد بأن الكسب الذي يحققه انسان واحد في الحقل الروحي يعتبر كسباً للآخرين وان سقوطه يعني سقوط الآخرين . ويعتقد بأن الشريعة الروحية لاتعمل في حقل ،بل في جميع الحقول الاقتصادية والسياسية والاجتماعية . فوحدة الانسان والانسانية في صورة واحدة هي مفتاح المحبة والسلام . ولهذا السبب ، يشعر غاندي بأنه فقير من الفقراء . ولكن هذه الوحدة لاتتحقق مالم يتنازل الانسان عن انانيته ويتجرد من مطامعه وجسديته .

ان خدمة الانسان ، في رأيه ، هي خدمة الله . فلايستطيع الانسان ان يدّعي بأنه محب لله وهو يكره الانسان ، ولهذا فانه ينادي بالطهر الذاتي والنقاء

الروحي والجسدي . ومن خلال هذه الخدمة ، يتوصل غاندي الى فكرة الواجب والحق وفكرة الوسيلة والغاية .

لم يكن غاندي مكيافيلياً وذلك لأنه يؤمن بوحدة الوسيلة والغـــاية وبتفضيل الواجب على الحق . وفي الحقيقة ، طالب غاندي الأمم المتحدة يوم أعلنت حقوق الانسان ان تضيف على اعلانها ذاك واجبات الانسان. فعلى الانسان واجب. وليس واجبه الأول إلا خدمة الآخرين ومحبتهم .

وعلى هذا الاساس فقد آمن غاندي بفلسفة الباجنا التي هي « عمل » موجه لازدهار الآخرين ، يقوم به فاعله دون الرغبة بتعويض مقابل . واما كلمة « عمل » فإنما يقصد بها العمل الفكري والمادي . وكانعتقد بأن غاندي قد نادى بتقديم مواهب الانسان الفكرية والمادية ، على مذبح الانسانية ومن أجل سعادتهـــا وتقدمها . ولما كانت الباجنا قد ولدت معنا ، فاننا نظل مدينين للآخرين طوال حياتنا ، مدينين لهم بخدمتنا وتضحيتنا .

وفي هذا المضمار يهاجم غاندي الحضارة الحالية التي يسميها حضارة شيطانية فهو يرى ان الروح مقيدة في هذه الحضارة وان الشر حر من القيود . فالآلة تسيطر على الانسان، والتقدم المادي يهيمن . ولهذا يظل الانسان متخلفاً في حقل الروح . فالكره والحقد والكبرياء والكذب والحروب والاطماع والانانيـة والشهوات والعنصرية مازالت تسيطر على الانسان ، بل زادت في الكم والكيف. فلو تقدم الانسان بروحه بنفس النسبة التي تقدم عادته ، لزال الاستثمار والاستعباد والطمع ولسادت المحبة والوئام .

ان غاندي ينادي بسلام عالمي قوامه التقدم الروحي الذي يقوم على فلسفة المحبة . ولا ينتج هذا السلام عن التقدم الآلي او التقني بـــل عن التقدم

الخلقي . الآلة في يد المستثمر شر وفي يد الأخلاقي خير . والصناعة والعلم شرٌ في يد المتخلف روحياً وخير في يد الانسان الانساني . والتقدم المادي يزيد الانسان الذي لم يحقق في نفسه ملكوت الروح فساداً . ومع هذا كله لا يهدف غاندي الى الغاء التقدم العلمي بقدر ما يهدف الى زيادة التقدم الروحي .

والاشتراكية في نظره لا تعني الحصول بالتساوي على الأمور المادية بقدر ما تعني التعبير الكامل عن الشخصية الانسانية . ولما كان الانسان ، في اي مجتمع كان ، غربيــاً أم شرقياً ، عاجزاً عن تحقيق هذه المساواة المادية ، لذلك يناهي غاندي بتحقيق روحي في الانسان يقوم على تربية الشخصية الانسانية .

## ١١ – براهما شاريا :

هي طريقة الحياة التي تقودنا الى براهما ( الله ) ، ولهذا فإنها طريق مفتوح للباحث عن الله . وتعني السيطرة التامة على الجسد . وتتم هذه السيطرة في الفكر والكلام والعمل . فالباحث عن الله يحب جميع الأشياء وذلك لأن الله موجود فيها . ويحب الله بحبا طريق الحقيقة والطهر ، ويتعين على الانسان ، ان يحب الآخرين او ان يضحي من أجلهم مالم يكن قد انتصر على نزواته ودوافعه وغرائزه كلها . ولهذا لا يستطيع الأناني الادعاء بمحبة المجتمع وخدمته وذلك لأنه لم يسيطر على انانيته . ولا يستطيع الشهوي ان يدعي المحبة والتضحية طالما انه شهوي يرى في الجنس وسيلة لاشباع حيوانيته .

براهما شاريا تشير الى سيطرة الانسان على حواسه وارادته وفكره . فهي اذن حالة عقلية ومادية على السواء . وابن تطبق براهما شاريا ؟ إنها تطبق في المجتمع . انها تطبق مع الآخرين . ولذلك فإن المجتمع لا يستقيم مالم يكن الانسان صالحا وطاهرا ، يحترم جسده ويعتبره هيكلا للروح النقية الطاهرة . فا لمجتمع

حقل لاختبار فضيلتي واخلاقي وانسانيتي . ولهذا فإن الاصلاح الاجتماعي يبدأ بأصلاح الانسان ذاته ، اصلاح روحه وخلقه وجسده وفكره .

* * *



# الرجل .. ورسالته

الكاتبة الهندية

ك . سانثانام

ترجمة : هشام الدجاني

قد يقال عن المهاتما غاندي انه كان أعظم من رسالته ، وهو قول يصدق عليه أكثر مما يصدق على أي عظيم آخر من عظماء التاريخ . ومن المؤكد الآن أنه يملأ نفوسنا بشخصيته أكثر مما يملأ نفوسنا بتعاليمه . إذ من يستطيع أن يتفكر في نهجه الرائع ، وإرادته التي لا تقهر ، وشجاعته التي لاتجارى ، وغيرته الكبيرة على مُثُله ، وعنفه الذي لا يرحم عندما يتعلق الأمر بالمبادىء ، وعطفه الذي لا حدود له على الضعفاء ، وفوق كل ذلك سيطرته التي لاتجارى على بدنه وعقله وعواطفه ، دون أن تمتلىء نفسه بالحب والاعجاب والرهبة ؟ ان الابتعاد عن وجوده البدني قمين بأن يصور لنا شموخه على نحو أكثر وضوحاً ، تماماً كما تبدو أبعاد قمة الجبل أوضح رؤية من مكان بعيد .

وليس بوسعنا أن ننسى أن شخصية النبي إن هي الا المادة المتفجرة التي تعطي رسالته القوة الدافعة الى التحرك في الفراغ والزمن ، كحرارة النجم الفوارة التي تمكن أشعته الضوئية من الوصول الى نهايات الكون .

ليس من السهل تقديم حساب دقيق عن رسالة مهاتما غاندي . فقد كان رافضاً دوماً لأية قواعد نظرية محددة لعقيدته ، وكان قانعاً بأن أي عمل في حياته يجب أن ينظر اليه على أنه تجربة في الحقيقة التي وقف نفسه من أجلها . لقد كان معجباً بالقول إنه لا يفعل سوى محاولة فهم اقتفاء تعاليم معلمي العالم العظام من الريشيين والأوبنيشيديين ، من أمثال بوذا وشانكارا ويسوع وتولستوي.وهذا القول صحيح الى حد بعيد . ولكن ليس ثمة شك في أن مساهمته في الدين والأخلاق هي متميزة ومتفردة كمساهمة شانكارا في الفلسفة الهندية ، علماً بأن الأخير له خبرة في فلسفة الأوبانيشيديين .

وتعاليم غاندي الأساسية يمكن أن تصنف تحت ثلاثة أصول : الحقيقة ، واللاعنف ، والساتيا غراها Satyagraha . ولست أحاول هنا تقديم حساب ، ولو كان موجزاً ، عن عقائده في أي من هذه المسائل . وإنما سأحاول فقط أن أشير الى كيف يجب أن يتفهم شخص ، لم يتبع عقائد غاندي بشكل وثيق ، كتابات غاندي حول هذه العقائد .

لنأخذ مفهوم غاندي عن الحقيقة . إن كلمة « الحقيقة » في حد ذاتها كانت تسبب حالة من النشوة في فكر غاندي . فحبه للحقيقة كان شيئاً يشبه حب العاشق الطاهر لمحبوبته . ولكي نوازن بين حقيقة غاندي وأفكارنا العادية عن الحقيقة ، أو بين العبارة كما تستخدم في العلم ، فاننا سوف نجعل كثيراً من كتاباته أشياء مبهمة كل الابهام .

ذلك أن حقيقة غاندي كانت مفهوماً ديناميكياً . كما هو الحال في التصور الحديث لعـــدد يوصف بأنه نهاية سلسلتين لا متناهيتين ، فإن كافة أرقام احدى السلسلتين أكبر من هذا الرقم وكافة ارقام السلسلة الأخرى أصغر منه ، تبدو الحقيقة لدى غاندي في أية مسألة محددة هي الحد النهائي لسلسلتين تقريبيتين . والمعنى الأساسي للحقيقة عنده ، كما كان يستخدم بشكل عـــام ، هو الاعتقاد الأخلاقي الذي يدفع الانسان الى العمل وفقه .

وطبيعة هذا الاعتقاد وقيمته تختلفان وفقاً للتطور الروحي للفرد ونقاء حياته وتفكيره .

لذا فإن الحقيقة ، كالذهب ، ليست نقية كل النقاء او كاملة كل الكمال . لقد تعود غاندي أن يساوي بين الله والحقيقة الكاملة . ومن واجب كل باحث عن الحقيقة ان يعمل في كل لحظة على ضوء الحقيقة كما يراها في تلك اللحظة، وأن يجهد في الوقت نفسه من أجل مفهوم أكثر نصاعة وكمالاً عن الحقيقة ذاتها . لذا فإن ما هو حقيقي اليوم قد يبدو خطأ غداً ، ولكن هذا لا يؤثر على صحة العمل المأخوذ اليوم وفق ما اعتبر حقيقياً .

وما قد سمي بنسبية الحقيقة او خاصية كمالها هو جوهر تعاليم غاندي ، وهو يقدم لنا مفتاحاً لكثير من الألغاز والتناقضات البينة في كتاباته .

وبصورة مساوية من الديناميكية يعالج غاندي مفهوم اللاعنف . ان الامتناع عن استخدام العنف الجسدي ماهو إلا الحد الأدنى المجرد للاعنف الذي يمكن أن يرضى به المرء عند تعامله مع أعداد غفيرة من الناس . ولكنه يتوقف عن ان يصبح لاعنفاً مالم ينفذ قُدُماً الى العقل والعواطف وينقيها قبل كل شيء من كل انانية وغضب وكراهية ، ويملأها أخيراً بالرضى والحب حتى لأعدى خصومه . ثمـــة

متسع في هذا المفهوم لكافة درجات اللاعنف : من اللاعنف الجسدي والتقليدي المجرد عند جبن الساذج حتى اسمى درجات اللاعنف عند بوذا وماهافيرا .

أما عقيدة غاندي في الساتياغراها فيجب أن تعتبر حجر الزاوية في تعاليمه . وانا على ثقة أنها رسالته الأولى . الحقيقة واللاعنف يشكلان الفرضيات الاساسية لها ، وقد يفترض بشكل سلبي أن أي شيء يتعارض مع آخر لايمكن ان يكون ساتياغراها . وقد وصف غاندي كيف صاغ الكلمة ليميزها عن المقاومة السلبية من جهة واللامقاومة المسيحية من جهة أخرى . وليست الساتياغراها تنافر شيء مع آخر . انها تتجاوزهما معاً . وكما يصبح العنصر المشع، كالراديوم او الاورانيوم، عنصراً خاملا عندما يفقد طاقته الاشعاعية ، كذلك الساتياغراها يمكن ان تصبح في بعض الشروط ، مقاومة سلبية أو لامقاومة . ولكن يمكن أن ننقل روحها بشكل أفضل بواسطة هذا التعبير : « هي كفاح ديناميكي من أجل العدالة » .



من غير الممكن في مدى مقالة قصيرة شرح الانطباعات النظرية لعقيدة الساتياغراها أو الاشارة الى الشروح العملية التي قدمتها لنا حياة غاندي والحركات العظيمة التي قادها في جنوب افريقيا والهند وفقاً لمفهومه عن الساتياغراها .

لقد فهم غاندي الحياة على انها صراع ازلي بين قوى الخير والشر بدون أية راحة من هذا الصراع اثناء الحياة الفانية . وهو لم يرفض عقائد الخلاص بالمعرفة أو الشك . لقد اعتبرها ، في الواقع ، توابع جوهرية للكارمايوغا . قد يصل الأفراد الخارقون والموهوبون الى النجاة ، حتى في هذه الحياة ، من خلال رؤية الكاهن الهندوسي أو بواسطة مجموع العبادات لله . ولكن بالنسبة للانسان الطبيعي تظل حياته على الأرض حياة عمل عادي ونضال مستمر . طبيعي ان الباغافاد غيتا كان مدونه الرئيسي .

ولكن غاندي لم يتردد في اعادة تفسير الغيتا نفسه على ضوء حقيقته هو . فالحقيقة واللاعنف والألم التطوعي المقصود تشكل جميعها العناصر الاساسية للساتياغراها . لذا فإن قيمة الساتياغراها تعتمد على نصاعة الحقيقة وعمق اللاعنف ودرجة الرغبة في معاناة الألم .

والساتياغراها ، كما يراها غاندي ، هي قانون الحياة لكل روح تطمح الى الحقيقة والكمال . وقد علمنا ان الساتياغراها هي أيضاً قانون كل مجتمع يسعى الى ان يكون مجتمعاً متحضراً حقاً . وغاندي ، شأنه شأن كل الانبياء ، كان متعطشاً الى أن يرى مذهبه قد تحقق عملياً وبشكل فوري ، ليس من قبله ومن قبل حوارييه الخلص فحسب ، بل كذلك من قبل مواطنيه والعالم كله .

تحت قيادة الملهمة حتى الطفل العادي يمكن أن يتحول الى ذهب خالص . ولكن تغيير المجتمع هو عملية بطيئة غاية في البطء . فهي قد تستغرق عقوداً وقروناً من الزمن قبل ان يختار عدد كاف من الرجال اتباع عقائد غاندي في الحقيقة واللاعنف والساتياغراها اتباعاً خالصاً ، بحيث يمكن توجيه حياة هذا العالم نحو مُثُله . واذا كان هو اليوم ميتاً ، فإن الزمن في صالحه.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

# مأساة فاوست الجديد

محمد أحمد العزب
القاهرة



ماذنبُهُ ..
قدكان يهوى الشعر - يهوى الفكر - يهوى الفلسفه
يهوى إذا جن المساء
أن يستريح على كتاب تاركاً للريح حتى معطفه
لكنهم ..
حين انحنى يبكي ويكتب للجموع
سرقوا من الليل الشموع
ورموه بالشيطان حتى خوّفه !

* * *

ماذنبُه ..
قد كان يهوى المعرفه
خُبْزاً لكل الناس
نبْعـاً للعطاش
ديوانَ شعرٍ للملايين التي لاتستريـح على فراش
لكنهم .. وَفَدُوا عليه .. من النوافذ .. والمداخل .. والسقوف
وَضَعُوا على عينيْه آلاف السيوف
رَقَصُوا به في كلّ رُكْنٍ من جدار
حتى استدار
وانهار يشْتمُ كلّ حرْفٍ في صحائفه
ويبصق فوق أكتاف الحوار
منْ يومها ..
وعباءةُ الفنان فوق ذراعه مِزَقٌ ..
وفوق يديه .. وَشْمٌ .. واخضرار !!

* * *

لاتلْعنوا هذا الزمان
« فاوسْت » أحْرى أن يُلاعِنَ كلّ أيام البَشَرْ
« فاوسْت » غنى .. وانتحر
« فاوسْت » أصْمَتُ من حَجَرْ
أحكى لكم عن صمْته
يوماً .. وقد غاب القمر

وتساقطت كُتَلُ الجليد على المفارق في الظلام ؟
« فاوست » حَنَّ إلى الورق
وإلى القلم
وارْتَجَّ في يده القلم
وبكى ، بكى .. حتى قرارات الندم
وانساب يكتب في جنونٍ ..
عاصراً جرْحَ الألم
وَفَدُوا عليه من النوافذ .. والمداخل .. والسقوفْ
لكنه مازال يكتب ملءَ طاقات الزخَمْ
وضعوا على عينيه آلاف السيوفْ
لكنه مازال يكتب شاهراً في وجههم وَجْهَ القلم
لاتدهشُوا ..
خَرُّوا على رجليه ..
صلُّوا للذي رفض الصلاة ..
وللذي شَتَمَ الصنمْ !!

* * *

— فاوست ..
بِعْتَ لنا شرُوحَكَ
بعْتَ روحكَ ..
بعْتَ كلَّ المُفرداتْ
لم تَبْقَ غير عباءة الفنان تستُرُ من دَمامتِكَ الزريّه

والآن تكتب ماتريد .. كأنما لكَ ماتريد ؟

فاوست ..

الحبْرُ لم يَنْشَفْ على ورق الوصيّهْ !!

– يا أصدقاء ..

أنا بعتُ فيما بعتُ فلسفتي .. وشعري ..

بعتُ كلَّ الأبجديّهْ

لكنني استبقيتُ شيئاً واحداً ..

ما بعتُكُمْ كلَّ القضيّه !!

* * *

صَلَبُوه في جذْع الخَرَسْ

أغرَوْا به كلَّ الحرس

شنقوا صدى كلماته في ألف حبل من حبال الكلماتْ

نشروا قصائده محرَّفَةً وضائعة السماتْ

قالوا :

تراجَعَ !!

وانحنى فوق الفُتاتْ !!

ماذنبُهُ ..

إن كان يصرخ « لا »

فنسمعها « نعم » ؟ !!

لا ترفعوا صلواتكم من اجله ..

هذا البريءُ المتّهَمْ

لا تفعلوا ..
إني أخافُ إذا فعلتُمْ ..
سادتي ..
أن يستحيل الى صنَمْ !!!

* * *

# .. وتخضر المقابر

ممدوح عدوان



كل أقوالي صارت صدئه
ودروبي لم يعد فيها سوى
تلك الصوى المنطفئه

أمطر الخوف عليها
فأعاق الأمنيات ابطوه
كل شيء مات إلا الرهبة المختبئه
وأنا الظامىء تدنيه أمانيه من البحر ،
وتسقيه فتحيي ظمأه
كلما جابهني الضوء ارتمى في القلب وهج المجزره
واشرأب العار ظلا

شد خلفي متزره

غير اني قادم رغم حصار الأوبئه

سوف آتيك بخوفي وأنا أعبر هذي المقبره

سمم العمر ، ارتمت أوراقه ،

صودر في حلقي النداء

منعوا عني الهواء

غير اني لم أزل أحمل في الصدر رئه

ولذا أنهض وحدي

بين آلاف الدمى المتكئه

حاملا نحوك قلباً صدئاً

عل شيئاً فيك يجلو صدأه

لم أزل أقوى على الحب

بهذي الجثة المهترئه



* * *

سأناديك بما تقوى عليه الحنجره

وبما أبقى لدي الوجع الدامي ،

وما أبقى الوباء

لاتخالي حرقتي آخر ومضه

لاتخاليها انتهاء

انها الخلق ونار الابتداء

فبقلبي لم تزل ترجف نبضه

وبها الوهج الذي يقوى على الحب ،
بها الوهج الذي يغسل من عمري الخواء
فأحبيني بما عندك من يأس
بما حملت من مر الليالي
علميني
رغم ذل قد عرفنا حمأه
رغم مافينا من الموت بأنا
لم تزل غلك رفضه
حينا فاجأني الحب ، انجلى ليل ،
أضاءت كبرياء
فرأيت الحلم في صدري وليداً واجفاً
والموت ثاراً تصطلي كي تدفئه
فأحبيني بما خفت من الموت الذي يملأ وجهي
وارفعي جبهتي المنكفئه

* * *

هذه الكأس التي لم تشربيها
والتي لم تمنحيها
لم تزل من وجعي ممتلئه
فاطمئني
لم يزل وجهك فيها
زاهياً كاللؤلؤه

* * *

ماالذي يعرفه عنك المطر ؟
مر بالأمس حبيباً
غض لم يلق تحيه
مرت الريح التي تحمله
كانت حبيبه
من ترى امتص من الريح البطر ؟
وخشينا كلمة توقظ أحزان المساء
فصمتنا في حذر
ثم لم نقو ، ذكرناك . . انهمر
وبقينا في العراء

# العطب !

محمد عمران



« ١ »

شفتي سلم إليكِ . تسلقتُ صلاتي . دخلتُ عينيكِ .
قلتُ : الشمسُ في إصبعي ، أضيئكِ . قلت : الماءُ ،
أسقيكِ . قلت : وجهكِ آياتي . قطفتُ الصمتَ
المعوشَ في قلبي .
( خذي خوتي . افوحي . صدأ العمرِ
اغسليه . )
قلت : المحبة منجاةٌ . ولاشط . والزمان
غريقٌ ! !

* * *

« ٢ »

انطفئي فيّ . اشتعلي .

( لاميلاد اذا لم يكن الموتُ ) ،

انهمري . انحفري . انغرزي في قاعكِ . عودي

جسداً نبوياً مغتسلا بالفرح الناري . تعري

في شفـــة الزمن المخنوقِ انصبي في رئتيهِ

دماً وهواءً ، حتى يمنحكِ القدرةَ . والعالم

موتُ ! !

* * *

« ٣ »

وكلما كبرت بي كبرتُ . استيقظت مدائنٌ

جديدةٌ . تفتحت جبالٌ عاشقةٌ . وأورقت .

وجئتني . يداكِ مستقبلي . أبني على مداهما

زمانيَ المنهدَ . كلُّ حجرٍ سفينةٌ

نجوتُ !!

* * *

« ٤ »

لانجاةَ إذن ! عطينا يداكِ

مرفأٌ من هشاشةٍ . أغرقيني .

واغرقي .

لو يجيئنا الطوفانُ !!

* * *

« ٥ »

لأنكِ انغوزتِ في رمادكِ العتيقِ ، وانفصلتِ
عن موائدِ الضياءِ ؛ جعتِ مُتِ . انطفأتْ
فيكِ نبوةُ اللهيبِ . غاصَ في أقدامكِ النهارُ .
صار تاجراً مساوماً . لأنكِ اتسختِ بالمحابرِ
الصفراءِ ، ماغتسلتِ ، مانفضـــتِ وجهكِ
القديمَ ، ماتعمدتْ عيناكِ في مجامرِ القراءةِ
الزرقاءِ والحمراءِ ، ماقطعتِ سُرةَ الولادةِ
لأنكِ انعصرتِ في قارورةِ العبادةْ
تشربكِ الغربانُ ، في سوادها ، وفي بياضِها .
لأنكِ التففتِ في عباءةِ الجوعِ ، وما احترقتِ
بالنهارِ . صرتِ جسداً مطفأً . مستنقعاً
تغوصُ في أوحالكِ الارادةْ ! !

* * *

« ٦ »

يوماً أتيتُ . ركضتْ في شفتي بشارةٌ عرجاءُ .
عند أول الطريق انكسرتْ . تعثرتْ بحجرِ الموتِ .
ارتمتْ . تركتُها تموتُ . جئتُ وحدي .
صوتاً بلا عبارةْ
مكسَّراً بأضلعِ الحجارةْ
يوماً اتيتُ . من يجيءُ العهرَ في كهوفهِ ؟ المرأةَ

آن حيضها ؟ الأقذار في القمامة ؟
من ينحرُ الغمامة ؟
لحماً ، لجوعِ شهريارٍ فاجرٍ . من شهرزادُ تكسرُ
الناب ؟ من الحمامةُ المطوقة
تُشير كيف تُقلعُ الشباكُ ، كيف يُنقذُ الحمامُ ؟
من يجيء ؟ جئتُ . ما رأيتُ ؟
وجهاً من الزجاجِ . جسداً من الزجاجِ . التقطتُ من
مستقبل الطريق حجراً . سمعتُها تنوحُ . لم أكن
شجاعاً . تصلبت أصابعي على الحجر
وعدتُ
لو أنني ثانيةً أتيت
لو أنني رميت
زجاجكَ العتيقَ بالحجاره
لو أنني ما خفتُ . ما أشفقتُ . ما تصلبت
أصابعي على العباره
لو أنني كسرتُ
تاريخك الصديءَ ، ما انهزمتُ !

* * *

« ٧ »
يعود بي تشردي . أقولُ : وجهُها محطتي .
جزيرتي الوحيدةُ :

( الليلُ لديكِ جسدٌ مفترسٌ . ووجهكِ
الذي أرضعته طفولتي ، رُمانةٌ
مكسورةٌ ؛ تتقلها النمالُ حبةً
فحبةً ... )
لا ، لن أجيءَ العهرَ في كهوفهِ . المرأةَ
آن حيضها . لن أدخلَ القمامةَ !

* * *

« ٨ »

يوتي نازفاً على شفتي جرحُكِ . أنهارُ . ألعقُ
الدمَ . كلبٌ أنا . أفتحُ أنيابي على لحمكِ
المفضض تأتيني كلابٌ . خبزٌ لنا ، موائدُ
من شعرٍ لنا ، لحمكِ الموتى على ليلنا الكابي .
الموتى على رغباتٍ . أطعمينا أمجادنا . أنتِ
لولم تذبحي ، كيف نعتلي الكلماتِ ؟

* * *

زانٍ ، ويداكِ امرأةٌ أغصبها ، وسريري الكلماتُ
أذبحها ، أدفنها في كهف الكلماتْ
ويداكِ بضاعةْ
أعرضها في سوقِ الكلماتْ
جاريةٌ ، وأنا النخاسُ
« يامن يشري أمةً بشرتها ماسٌ ونحاسُ ! »

ويداكِ حقيبة
احملها ، وأسافرْ (١)
ويداكِ زبيبهْ
آكلها ، وأسافر
ويداكَ زريبه !

---

(١) يقول محمود درويش :
« وطني ليس حقيبة
وأنا لست المسافر ! »

# صلاة في محراب التاريخ

خالد محي الدين البرادعي
الكويت

تساءلتم أحبائي عن الوطن
وجاء نداؤكم ، عبر السنين العُجف يوجعني :
– لمن تلك السفوحُ الخضرُ ؟
غابت عينُ يَعْزُبها ؟
ومكتوبٌ ، بخطِ الكوفةِ العربيّ
أوصافٌ لصاحبها ؟
فتىً ، متوقّدُ النظراتِ
فيه براءةُ الحملِ
وأسمرُ ، أدعج العينينِ
رحبُ الخَطْوِ ، والأملِ ؟

ـ بدنياكم أحبّائي
هنا ، في العُدْوةِ الشرقيةِ الوَمَضاتِ
في الجولانِ
في الأغوارِ
عبرَ شعابِ سيناءِ

هنا من بعد ما اصطبغتْ
بلون الثأر رؤياهُ
يناديكم أحبائي
وجالت في الحروف الحمر عيناهُ :

ـ إذ أغمضت في الصلوات عينيّا
وَرَنَّ حداءُ شاعركم بأُذنيّا
أرى دنيا
جفونُ الشمس ترقصُ في بواديها
حَبابُ الصبح يسبّحُ في شواطيها
على نغمات حادي العيسِ
تنمو في محاجركم أقاحيها
وتنضجُ ـ كاخضرار الشعر في فمكم ـ أناسيها

* * *

ـ أحبائي !
أنا ما زلت أهوى ضوءَ مشعلكم

وأنهلُ ماءَ جدولكم
فان أَبْكِ ، افتراسَ اليأسِ والأحزان
ضَوْءاً من أزاهركم
وإن أشْكُ ، اهتزازَ الرؤيةِ البيضاءِ
يغمرها تساؤلكم
فلا نسيانَ ، لاعتبى أحبائي
ولكني ، قصيرُ خطىً
وهذا الليلُ يملأ كُلَّ أشيائي

أحبائي ، أحبائي
لكَمْ عبثَ الأسى
واللهفةُ الحرى بأحشائي
ومن عامين ، لاح بصيص هذي النار
خلفَ الهُوَّةِ السوداءِ والأسوارْ
وأوحى الطيفُ فيْنَانا
لألفٍ من فوارسكم
تخطَّوا رُقعةَ الصحراءْ
واجتازوا حدودَ الصبحِ : مامعكم ؟
يجيءُ تساؤلُ الأيامِ :
ما معكم أحبائي ؟

وربو المربَعُ النائي

يزاد فوارس الأعراب
بالبذوات . بالزهرات . بالكلمات
يوقظ راقدين جثواً على النزوات
في محراب آلهة مزيفة
يعالجها انكفاء الليل فوق مواطىء اللذات

* * *

أحبائي !
وضعت الخطوة الأولى
على هضبات أسفار
حضارتكم باحرفها
لألتمس الهوى والدفء
من قبسات سالفها
أخضّل يابس الأحلام
في نسمات وارفها
وأفتح كوة طمرت
رياح البعد عن حبي معالمها
فأجتاز السنين الألف
وألثم مقبضاً للسيف
قال لعابد النزوات والطاغوت حامله :

بهذي الفرسةِ الحمراءِ حذوَ الحرْفْ
نعمر زاهرَ الدنيا
نُفجّرُ كامنَ الرؤيا

* * *

أحبائي !
أتغمرنا ، وتدفننا
وتحرقُ ثوبَ ليلٍ كانَ
يعلكنا ويبصقنا ،
حضارتُكمْ ، أحبائي ؟

# النسيان

جورج سالم

كان كل شيء على ما يرام حين انتهى الى الضفة في الأرض المقفرة . تلفّت يمنة ويسرة فلم يجد أحداً بجواره ، ولم يجد من يتعقّب أثره أو يراه حيث كان ، فاطمأنت نفسه وهدأ روعه وأيقن أن الأمور ستسير كما قدّر لها أن تسير ، ثم شخص ببصره الى الأفق البعيد – الى ما وراء النهر – فظهر المنظر في ضوء الفجر ذي الأنوار المتكسّرة باهراً رائعاً مخيفاً بجماله ، وقال في نفسه : « ها قد وصلت ، أما أهله وزوجته وأولاده فقد خلّفهم هناك وراءه ، بعيداً عنه ، ولن يستطيعوا اللحاق به أو معرفة مكانه الا بعد ساعات طويلة جداً .

وكان النهر – الذي لا يختلف عن جدول صغير الا بعمقه وغزارة مياهه – يسيل في هدوء وصمت محدثاً تكتكة خفيفة أشبه شيء بتكتكة الساعة الكبيرة ذات الرقاص التي تزين غرفة الاستقبال في منزله . وتوقّف هنيهة يتأمل صفحة الماء الرقراقة ، قال في نفسه : « ليس من يدري متى أخذ هذا النهر يجري ولا الى أين

يجري ولا متى يتوقف » . ثم أضاف ساخراً : « ومن يجرؤ أن يقول أنــه سيتوقف عن الجريان ذات يوم ! »

داعبته نسمات الصباح فأحس في صدره بما يشبه الدغدغـة فاستسلم لهذا الشعور في نشوة غريبة ، وهبّت موجة من ريح قاسية فأثارت على أقدامه غباراً متصاعداً من الأرض المقفرة التي توقف فيها ، فقال : « هيهات البقاء هنا ! » . كل ما حوله متـسخ درن ، والتفت قليلا الى الوراء ، لا شيء غير مألوف : تطلّ من بعيد ، من أعماق بلدته المباني العالية والأشجار ، وبالقرب منه الأعشاب البرية والعوسج ، وهنا أشجار الصبار بأوراقها المملوءة بالأشواك المدببة كالإبر ، لا شيء جديداً في هذا المشهد الرتيب المتكرر الذي ألف رؤيته صباح مساء منذ مئات المئات من الأيام. وفي اللحظة نفسها أهاب به صوت ـ لا يدري من أين انبعث ـ أن انظر أمامك ولا تلتفت الى الخلف . وأمامه بعد الضفة الثانية من النهر كان المشهد الرائع الجميل الذي لا حد لجماله ولا يستطيع اللسان البشري أن يصفه ، يتمثّلُ بكل بهائه وجلاله ، هو كون شبيه بفردوس ما رأته عين ولا سمعت به أذن انسان ولا خطر على بال بشر تتلألأ فيه نجوم وأقمار يخطف ضوءها البصر . وتساءل في قرارة نفسه : « أتراني خصصت بهذا الملك وحدي ؟! » ، وأرهف السمع لكي يلتقط كلمات أخرى تنبعث من ذاك الصوت الذي لا يدري من أين يأتيه ، ولكنه لم يسمع هذه المرة صوتاً بل سمع نغماً عذباً لم يكن قد تبيّنه من قبل ، نغماً لا يشبه أي نغم أتيح له أن يسمعه في حياته كلها . ظلّ فترة مشدوها مشدوداً الى هذا السحر الفائض المتدفق .

لم يستطع أن يجذب ذاته ممّا كان يحيط به إلا بعد لأي وجهد ، اذ لا بد له أن يقوم بما وطّد العزم على القيام به . فاستدار يبحث عن بعض الألواح الخشبية

حوله ، الا أن الأرض كانت مقفرة خالية ، فبحث في كل اتجاه وسار طويلا حتى انتهى به المطاف الى حقل ، فراح يفتش فيه عن لوح أو ألواح خشبية . قال في نفسه : « ان مجموعة من الأغصان يربط بعضها الى بعض بحبل متين قد تفي بالغرض » . وهمّ بتناول بعض الأغصان المقطوعة ، فاذا به يجد لوحاً خشبياً يعلوه التراب ، قال في فرح ظاهر : « هذه بغيتي ! » وحمل اللوح الخشبي ومضى الى ضفة النهر مسرعاً خوفاً أن يراه أو يسمع وقع أقدامه انسان ما .

قال : لست أجيد السباحة والنهر عميق القاع فيما يبدو لي ، وسيتاح لي بواسطة هذا اللوح العبور الى الضفة الأخرى ، وهناك سأقيم وأقطع صلتي بكل ما حولي ومن حولي متنعماً الى الأبد بهذا الفردوس الفاتن .

وضع اللوح على الأرض وراح يدفعه حتى يلامس الضفة الثانية ، كانت هذه أعلى قليلا من الأولى ، فالتمس بعض الحجارة الصلبة ووضعها تحت طرف اللوح فاعتدل كأنه ميزان قوي ، وضغط على اللوح في عدة أماكن منه فوجده صلباً يستطيع أن يتحمل ثقل جسمه ، ومدّ ذراعه بجهد كبير كي يلامس منتصفه فوجده قوياً مرناً كذلك . قال : « ان كل شيء على ما يرام ! ولم يبق الا ان أسير عشر خطوات وينتهي الأمر ! »

وما ان همّ بوضع رجله على طرف اللوح الخشبي — بل قبل أن يلامس بأطراف حذائه جانب اللوح — حتى نجم له جندبان لا يدري كيف ظهرا ولا من أين أتيا ، وبصوت واحد متشابه ، في نبرة واحدة ، قالا له :

— قف !!

فتوقّف وهو لا يدري ماذا يجب أن يفعل ، ولا كيف ينبغي أن يتصرّف ، فقد كانت المفاجأة ساحقة !

لزم الجنديان الصمت فلم يتحركا ولم ينبسا بحرف ، فلزم هو أيضاً الصمت واقفاً متجمداً كتمثال من الملح !

وبعد لحظات قدّر أنها أطول من أطول ساعات انتظار مرّت به في حياته ، قال الجنديان بصوت واحد :

– الى أين أنت ذاهب أيها الرجل ؟

أحسّ بأنه يسترد أنفاسه التي كادت تتقطع . قال بشيء من الضعة والخجل :

– سأمضي الى هناك ، الى الضفة الثانية !

انبعثت من الجنديين في آن واحد وبحركات متشابهة ضحكات مجلجلة مدوية . ثم أشارا الى اللوح الخشبي وقالا :

– هذا غش وخداع !



فلم يفهم أول الأمر ما يعنيان، ونظر اليهما نظرات فيها مزيج من الدهشة والاستنكار والتساؤل .

قالا له :

– ان من يريد أن ينتقل الى هناك ( وأشارا بطرف أصبعيهما الى الضفة الثانية ) عليه أن ينزل الى النهر فيقطعه سباحة .

أجابهما ، وكأنه وجد أخيراً حجة قاطعة ومبرراً لعمله :

– ولكنني لا أجيد السباحة .

نظر أحدهما الى الآخر، ثم التفتا اليه وقالا له :

– لا بأس ، انا نحن هنا لهذا السبب ، فباستطاعتنا أن نغوص معك فنجعلك تجتاز بصحبتنا نهر النسيان هذا .

ابتسم لهذا الحل ولم يجد فيه ضيرا ، وقبل أن يفتح فمه ليعلن موافقته ، قفز الى لسانه هذا السؤال :

— ماذا تقصدان بنهر النسيان ؟

ضحك الجندیان ثم قالا له :

— أأنت على استعداد للعبور ؟

نظر اليهما في فزع ، وصرخ بشيء من العصبيّة :

— أنبئاني أولاً ما معنى نهر النسيان ؟

قال الجنديان :

— اعلم إذاً أن كل من يريد الوصول الى هناك عليه أن يغوص ويستحم قبل كل شيء في نهر النسيان هذا .

فسأل في دهشة :

— ولماذا ؟

قال الجنديان بمكر :

— تلك أصول اللعبة . لم نضع نحن أصولها ولا ندري تفسيراً لها ، انما نحن موكلان بتنفيذها .

بدت الحيرة عليه فسألهما :

— ولكن لماذا ينسى ، وماذا عسى أن ينسى ؟

فأجاباه فوراً :

— كل شيء ، وهذه أصول اللعبة !

وبدا أنه ، للمرة الثانية ، لم يفهم حرفاً . قال الجنديان وقد نفد صبرهما :

- عليك أن تقرر ، وينبغي أن يتم ذلك بسرعة .

قال :

- وماذا ينسى ؟

نفض الجنديان ايديها الواحدة بالأخرى وقالا :

- ينسى ماضيه كله مثلاً ، ينسى حياته ، ينسى الشقاء والعذاب والالم والفقر وما أشبه ذلك ...

هزّ رأسه أول الأمر في شيء من الفرح . حسن أن ينسى المرء دفعة واحدة كل هذه المصائب المتراكمة . ولكنه سرعان ما استدرك وقال :

- ولكنه سينسى أيضاً أفراحه ومباهجه ولحظات سعادته !

فهز الجنديان رأسيهما موافقين .

لبث حائراً ثم قال :

- أما من حل ثالث ؟!

- لا وجود للحل الثالث في أصول هذه اللعبة .

وأشارا اليه اشارة الاسراع كأنهما يتعجلانه .

قال في نفسه : « كيف أجرؤ على أن أضيع في لحظات قصار أجل ماجمعت في حياتي وأثمن ماتكوّنت منه لحمة وجودي . وكيف يريد هذان الجنديان أن أنسى سعادتي وأفراحي وآلامي وأحزاني وكل ما أعطى حياتي معناها فأفرغ ذاتي من محتواها ؟ هل يستطيع الانسان أن يتخلّى عن ذاته بمثل هذا اليسر وهذه السرعة ؟!

قال :

- واذا رفضت النسيان ، ورغبت عن الاستحمام في مياه النهر ؟

قالا له :

– ذاك شأنك ، فأنت أردت المجيء ، ولم ندعك نحن !

– وما العمل في مثل هذه الحال ؟

– الأمر في غاية اليسر : تعود من حيث أتيت تعاني الألم والشقاء والعذاب والتعاسة في بلدتك .

استدار في تصميم مولياً النهر ظهره . وسمع وهو في طريق العودة صوت تحطم اللوح الخشبي وتناثره شظايا في كل اتجاه .

حوارية

# الذئاب تعوي عند اكتمال القمر

غسان جزائري



يدغدغ الموت ضحيته . فالسطحي يموت وعلى وجهه ابتسامة ، والقوي يموت وعلى وجهه كشرة رهيبة تضع في نفسه حداً لمخافات الموت .. انه ذلك الوجود الكريه الذي يخشاه من يعيش في رفاهية بعيداً عن الشعور بالذنب ، ويطلبه من يقاسي آلام الحياة ويعاني تبكيت الضمير يحمل عبأه وعبء الذين لا يبالون . مسكين .

- لقد سمعتهم يقولون ذلك .

- أنا .. لم اسمع شيئاً . لقد كنا معاً ، اليس كذلك ؟ ولكن يخيل إلي اني قرأت شيئاً من هذا القبيل .

- كان يعيش في مغارة ، والمغارة لا يأوي اليها الا الذئاب . لقد خدع الجميع . لقد كانوا يعيشون في بقعة الارض نفسها . كانوا يقولون : في المغارة ذئاب هذه اصواتهم ( يسمع الآخر صوت ذئب ) . وقال المشككون : ربما

كان يموت . وقال آخرون : حذار، حذار ان تقتربوا من المغارة فقـد ينقض الذئب عليكم ويمزقكم إرباً إربا . لن يسمعكم احد ان صرختم : النجدة ، ربمـا يتجاهلون نداءكم كما هم دائماً يفعلون . وقال آخر : كنت اقطنها قبل ان تغدو موطناً للذئب . لم يكترث بالآخر احد . ما بالك ترتجف ؟

ـ ( دعك من هذا . دعك من هذا ) .

ـ قالوا ان الذئاب لا تعوي الا عند اكتمال القمر ،وكان الذئب يعوي دائماً . هذا ما كان يحيرهم .

ـ من يدري ربما كان القمر مكتملا في مخيلته .

ـ اجل .. لم افكر في هذا . بل لم يخطر ببالي ذلك . غريب . حقاً . لماذا لا تخبرهم انت بنفسك ذلك ؟ كان الذئب حديث اهل القرية . كانوا يحملون في يدهم مشاعل حتى في وضع النهار ويحملون في يدهم الاخرى عصيا طويلة قاسية في رؤوسها حراب حديدية وكلما طالت فترة وجود الذئب بينهم تناقص عدد القوم وكسب الذئب مؤيدين له منهم . وقف من بين القوم رجل وصرخ : الى متى سيدوم خوفنا من هذا الذئب اللعين ؟ الى متى سنعيش في ذل ؟ في قلق ؟ ونهض آخر ورد على الاول بعنف : اننا لا نخاف احداً . اننا لا نخشى شيئاً .

ـ لماذا تنظر الى السماء ؟

ـ القمر مكتمل اليوم .

ـ ربما يعوي ذئب آخر . ( يسمع عواء ذئب ) ماذا حـدث للذئب الاول ؟ قلت انهم اقتربوا من مغارته .

ـ اجل . اقتربوا ولكنهم رجعوا يجرون خلفهم اذيال الفشل . لقد صرخ احدهم : هيا . اسرعوا .. اهربوا .. اهربوا .. الذئاب تطاردكم .

– وماذا فعلوا ؟

– صدقوه فركضوا . لم يتبين أحد صدق القول .

– لم يكن هناك ذئب أو ذئاب ... أليس كذلك ؟

– أجل لم يكن هناك ذئب أو ذئاب . كان هناك كلب بري شارد محتضر . ان مات سيندنر . عواؤه يقض مضاجع القوم يجعلهم يتوجهون اليه كلٌّ على حدة كل عدد من السنين . يقفون بعيداً عن المغـــارة ويصرخون صرخات جوفاء . يزمجرون . يتسمرون حين لايسمعون أي صدى . ثم يصرخون من جديد صرخات عشوائية محمومة يريدون أن يرهبوه . انه كالشيطان لايرونه لابد انهم ضلّوا الطريق . فقدوا طريق المغارة والمغارة تسكنها الذئاب . وحين عرفوا انهم ضلّوا الطريق عادت لهم شجاعتهم وصار كل واحد منهم يروي للجميع بطولاته السابقة وانه لولا أن ضل الطريق لعاد وهو يحمل جثـــة الذئب اللعين ولهذا السبب لم يذهبوا معاً ولكنهم التقوا صدفة في الطريق . كان هناك تشديد غريب على كلمات معينة . واختلف القوم كلهم يريد أن يعود بجثة الذئب . وقف أحدهم ممن كان يسمونه معتوهاً وعلى وجهه كشرة وقال للجميع : كان بودي أن أعود بالذئب في قفص واجعل منه مورد رزق لي ولكن لابأس . سأضحي من أجلكم واترك لكم شرف صيد الذئب كيلا تغضبوا . وهنا قام أحد الحضور فابتسم وصفعه صفعتين قويتين لم يترك له فرصة ادارة الخد الآخر وقال له : خذ هـــذا جزاؤك وجزاء من يسخر منا . قال الهرمون منهم وقد كاد الثأر أن يصرعهم : مسكين دعوه . دعوا المعتوه وشأنه . سينقذه الموت ان اصابه . وقف المسكين بعد أن شكك بموقف الذي صفعه وقال بحرقة : لقد مات الذئب وبقيت

روحه فينا . كلنا ذئاب وهنا حدث هرج ومرج ولغط ووقفت أصرخ : أيها الناس . أيها الناس . فلم يجبني أحد وكأنما عقدت ألسنتهم جميعاً وراحوا ينظرون إلي نظرات غريبة وكأني ارتكبت جريمة أو خيانة ، وارتبكت .

وحين هدأت نفسي صرخت : أيها الذئاب . أيها الذئاب . قالوا : نعم . نعم . وغص البعض بكلمة نعم وسقطوا مغشياً عليهم .

( يسقط زميله مغشياً عليه ويقف الآخر مشدوها )

# العلم والأدب

د . بطرس مدور [1]

ترجمة : محيي الدين صبحي

هل ترك الأول للآخر شيئاً يقوله ؟ أم هل غادر الشعراء من متردم ؟ فماذا يمكن ان يقال في هذا المجال بعد أبحاث ريتشاردز وهكسلي وسنو وآخرون ؟

لذلك سأبدأ بسرد الأفكار التي لن اعالجها : لن اتحدث عن الثقافة ، ولا عن التوفيق بين العلم والأدب ، ولا عن أن الأدب الخيالي مهدئاً أو مهيجاً للأفكار العلميــــة أو العكس . ولن أقول مع وردزورث ان الاكتشافات والأفكار والمغامرات العلمية ستحتل جزءاً أكبر في مادة الشعر . ولن أعيد تعنيف المستر بيكوك لنقاد المجلات الذين « يستمرون في عملهم الأدبي وكأن لم يوجد بعد علماء في الرياضيات أو الفلك أو الكيمياء أو التاريخ او الاقتصاد السياسي .. »

---

(١) من أصل لبناني ، مدير المؤسسة القومية للابحاث الطبية في انكلترا ، نال جائزة نوبل للطب عام ١٩٦٠ .

فاذا حذفنا ذلك فماذا يبقى في موضوعنا ؟ تبقى ملاحظة لويس ديكسون « حين يصل العلم ينصرف الأدب » ، وهي الملاحظة التي تعكس أحزان كيتس من أن تحليل قوس قزح جعل من الامور المرعبة أموراً عادية بليدة .

هذه الملاحظة سأقلبها رأساً على عقب ، وسأجعل قضيتي التي أريد البرهان عليها هي أنه ( حين يصل الأدب ينصرف العلم ) . ثمة حقول في المعتقدات والمعارف الانسانية يجد العلم والأدب كلاهما لديها مايقولانه ، هذه الحقول نجدها مثلا في النواحي الثقافية والاجتماعية من علم الانسان ( الانثروبولوجيا ) وفي النواحي النفسية والسلوكية لدى الانسان ، وحتى في علم الكون ( كوسمولوجيا ) . فهذه الموضوعات تكمن في حقل الأدب حين يعالج آمال الانسان ومخاوفه ومعتقداته وحوافزه ، حين يمنح الأديب من نفسه ويتعمق شروط حياته ، وحين يبحث أمور الثقافة العامة ، وهو اصطلاح أعني به نموذج الطريقة التي يفكر بها الناس ويتصرفون . وعلى العلم في هذه الحقول أن يوجد نوعاً من الفهم ، خيالياً في أصوله ( كما أود أن أبرهن ) لكنه يخضع لرقابة الحقيقة التجريبية .

لا يوحين ذلك بأن العلم والأدب يتعاونان للوصول الى هدف مشترك ، بل على العكس ، إنهما يتنافسان حيث يجب أن يتعاونا . إنني شديد الأسف لهذا الحال وأتمنى أن يكون الجميع أصدقاء . وقد قال ألدوس هكسلي :

« أيها الادباء ، أيها العلماء ، دعونا نتقدم معـاً نحو المجهول الذي يتسع أمامنا دوماً وأبداً » .

ان هذا لطموح جميل . غير ان تحقيقه يقتضي أولاً أن يتفهم الأديب والعالم انجازاتهما ومناهجهما ومفهوماتهما ، ونوع ونمط الحركة التي يتجه اليها تفكيرهما . لذلك سأناقش التخيل والنقد في كل من العلم والأدب ، لأبين لماذا

لايمكن أن يتوافق مفهوما الأدب والعلم ومناهجها . بعد ذلك سأقارن بين فكرة الشعر عن الحقيقة وفكرة العلم عنها ، وفي النهـــاية سأستعمل التحليل النفسي الفرويدي وعلم النفس العقلي الراهن ، لأبين الطريقة التي يتنافس بها كل من العلم والأدب على الاكتشافات التي يدعيها كل منها لنفسه .

لأبدأ بمناقشة حدود المخيلة ومداخلاتها ثم العقلية النقدية التي تتبعها في كل من الأدب والعلم . ان النظرية الرومانسية الرسمية تجعل العقل والمخيلة نقيضين ، أو على الأقل يشقان طريقين متناوبين يقود كل منها إلى الحقيقة . فأما طريق العقل فطويل ملتو يقصر عن بلوغ القمة بأنفاس لاهثة متهدجة . وأما المخيلة فانها تعدو قفزاً إليها . لذلك فالعقل يتقدم دائماً في مناطق كانت تحتلها المخيلة .

وليست هذه هي النظرية الرسمية التي يعلنها الشعراء ، كبـــار الشعراء الرومانسيين فقط ، وإنما كان يعتنقها أيضاً كبار العلماء من نيوتن إلى باكون وميل . واليوم نجد ألدوس هكسلي ، الرجل الذي يحق له أن يتكلم عن العـــلم والأدب كليهما بسلطة متساوية ، يقول : « العلم هو الملاحظة النزيهة البصيرة والممارسة دون تحيز ، وهو الاستدلال الصبور ضمن نظام من المفاهيم المترابطة منطقياً » .



هذا مع العلم بأن هكسلي قد يكون آخر رجل ينكر دور المخيلة في العلم . غير أن المخيلة الخلاقة في العلم موهبة أفراد نادرين يحققون في توهج الحدس مالا نحققه نحن إلا بالجهد الجهيد في ممارســة « صناعة التحليل » حسب قول وردزورث . غير أن النقطة هي أن بامكاننا أن نتوصل إليها — قد لانكون جميعاً عباقرة ولكن بامكاننا أن نتوصل الى اكتشاف ما دون حدس ، بالرغم من أن ذلك لم يحدث حتى الآن .

هذه هي النظرة الرسمية للمدرسة الرومانسية عن التزام العلم بالعقل . غير أن كثيرين لم يعودوا يؤمنون بها بعد أن فكروا ملياً في طبيعة تجربات العملية العلمية . فبزغ مفهوم مختلف تماماً في كتابات هيويل وبيرس وكارل بوبل .

وفحوى النظرية الجديدة هي أن كل تقدم في الفهم العلمي يبدأ بمغامرة تأملية . أي بتصور سابق لمفهوم « مايمكن ان يكون صحيحاً » . وهذا التصور يبتعد كثيراً أو قليلاً عن الاعتقاد السائد . إنه ابتكار عالم ممكن ، او جزء منه . بعد ذلك يعرض هذا التصور للنقد كي نرى ما إذا كان هذا العالم المتخيل قريباً من العالم الواقعي .

وعلى ذلك فان التفكير العلمي في كل مستوياته تفاعل داخلي بين حادثتي تفكير ، أو حوار بين صوتين : المتخيّل والنقدي ، بل لعله حوار بين الممكن والواقعي أو بين المقترح والمفروض .

في هذا المفهوم لاجراءات العملية العلمية يتكامل على الدوام النقد والمخيلة .



وعلى ذلك ، فالمخيلة دون نقد خليط مضحك من المبالغات والأفكار السخيفة ، أما النقد دون مخيلة فهو أرض قاحلة . يعتقد الرومانسيون ان الشعر أو الاكتشاف الخالق يتناقضان تمام التناقض مع التفكير التحليلي ، فهما شيء بعيد عن تفاعل العقل مع الواقع . وبذلك أخطأوا كشفاً من أعظم الكشوف ، وهو التعاون بين المخيلة والتفكير ، بين الابتكار والملكة النقدية ، وأنا أدعو ذلك كشفاً مع أنه ليس عمل رجل واحد .

قد يقول قائل : « نحن نقبل رأيك بأن التفكير العلمي قد ينحل إلى حوار بين الملكات النقدية والابتكارية ، أو إلى شيء من هذا القبيل عامة ، ولكن ماهو الأمر العلمي المميز في ذلك ؟ ولماذا يجب أن نتشبث به لنميز العلم

من الأدب الحالي ؟ ، وقد يستشهد على ـ ؤاله بقول ماثيو أرنولد « الشعر جمعة نقد للحياة. » غير أن ارنولد نفسه كان يرى النقد والابتكار على طرفي نقيض ، ولعله حين قال « ان ملكة النقد أدنى درجة من ملكة الابداع » أظهر لنا أنه ليس لديه أية فكرة عن وجود أشكال من الذكاء لاينطبق عليها تصنيفه .

والخلاصة هي أن فكرتنا التقليدية عن دور المخيلة والنقد في العلم والأدب تقوم على الدعاوة الخاطئة التي بثها الشعراء الرومانسيون والفلاسفة الاستدلاليون، بينما يرى المحدثون أن المخيلة هي القوة المحركة للعلم والأدب معاً ، غير أن المخيلة والتقييم النقدي لانتاجها في الحقل العلمي يعملان متكاملين مترابطين . وإذا تبنينا اتجاهاً توفيقياً قلنا إن العلم شكل من الشعر ( بمعناه الكلاسيكي الواسع ) يعمل فيه العقل والمخيلة متضامنين . هذا هو أهم كشف للتحليل الفكري في الفكر الحديث .



* * *

إذا اردنا الآن بحث الأسلوب العلمي وجدنا « الفلاسفة الجدد » في القرن السابع عشر يصرون على ان الكتابة العلمية والكتابة الأدبية متباينتان متناقضتان، ففي الكتابة العلمية يكمن العنصر التخيلي في المفهوم وليس في اللغة التي تجعل المفهوم واضحاً قابلا للادراك . ويجب أن يتم الوضوح بأسلوب طبيعي . يقول إ . ريتشاردز « نحن نصدق العالم لأنه يستطيع أن يبرهن على ملاحظاته وليس لفصاحته أو سهولة عرضه ، بل إننا نشك به حين يحاول التأثير فينا بهذه الوسائل . »

في أيام « الفلسفة الجديدة » وصلت المنافسة والمنازعة أوجها بين الفصاحة والحكمة ، بين الاسلوب والمضمون ، بين الوسيلة والرسالة ، بعد أن استمرت

مايقرب من ألفي عام . فليس من سبب يجعل الكتابة العلمية والفلسفية موضوعاً للأدب والبلاغة .

لم تتزعزع هذه الفكرة إلا حين انتشر تأثير الكتابة الفلسفية في الحقبة الألمانية ، بين منتصف القرن التاسع عشر ونهاية الحرب العالمية الأولى . فقدخضع الفكر وتشوش بغوامض الميتافيزيقا الألمانية . واحتل الاسلوب المحل الاول ، وأي اسلوب هو ؟ مصقول ، مليء بذاتية الكاتب ، ذو وقفات كأنما ينتظر كاتبه خلالها انفجار التصفيق . وكان له تأثير محزن على نوع الفكر الحديث في الفلسفة والعلوم السلوكية والانسانية .

يتصف هذا الاسلوب بنقص الوضوح إلى درجة من الصعب معها متابعته . ولقد عم الغموض جميع المجالات ، حتى قال جونسون عن درايدن « كان يستمتع بالسير على شفا المعنى حيث يختلط النور والظلام أولاً بأول » .

ان الغموض في الأسلوب رذيلة مهما تكن دوافعه . وكان ( كنت ) يقول ان هدف الكتابة الغامضة أو الصعبة هي أن تخلق وهم العمق في نفس القارىء . ورأى أن أي شخص إذا كان لديه شيء أصيل يقوله – سواء في مجالات العلم أو الفلسفة أو الأدب أو مابينها – فانه لن يجازف بأن يقوله بشكل غير مفهوم ، عامداً متعمداً . فالكاتب الغامض إما أن يكون غير ماهر أو أنه يخطىء هدفه .

. . .

سأقارن الآن بين فكرتي العلم والشعر عن الحقيقة ، بمقدار مايساعدنا ذلك على معرفة وتحديد العوامل الأدبية في الفكر العلمي أو شبه العلمي .

حين تستعمل كلمة « الحقيقة » في نص علمي تدل دائماً على شيء له صلة بالواقع . فالشيء حقيقي حين يكون في الواقع حقيقياً – هذه هي القضية . وهذه

الحقيقة التجريبية - الحقيقة بمعنى أنني في هذه اللحظة أكتب في غرفتي ولست راكباً في طائرة . ان هذه الصلة بالواقع هي الاختبار الذي تخضع له جميع النظريات العلمية مهما كان شأنها .

لننبذ على التو فكرة أن الحقيقة التجريبية كما يستعملها العلماء - أو حتى المحامون والمؤرخون - هي الفكرة الأولية أو الجوهرية التي يفهمها كل انسان فهماً لدنياً أو حدسياً . على العكس من ذلك ، فالحقيقة فكرة متقدمة جداً وناضجة جداً بحيث نجهد في سبيلها ولا تأتي إلينا عفواً ولا سهواً . ولننبذ أيضاً التفسير الاستدلالي للطريقة التي تدخل بموجبها الحقيقة في الاستطلاع العلمي . ففي النظريات الاستنتاجية الكلاسيكية عن المنهج العلمي تكون الحقيقة العملية السهلة هي مايفترض أن يبدأ به التفكير العلمي . فنحن نبدأ بتفهم دقيق لوقائع القضية ؛ نبدأ بصورة جلية زودتنا بها الحواس ، بحيث يستطيع التفكير العلمي أن يضع فوقها المزيد من الحقائق العامة أو القوانين الطبيعية . وترى النظرية الاستدلالية أننا لانقع في الخطأ إلا حين نخطىء في فهم الوقائع التي ظننا أن بامكاننا الاعتماد عليها . الخطأ تابع لعدم التمييز في الرؤية ، وللقراءة الزائفة « لكتاب الطبيعة » حيث تكمن الحقيقة ويمكن استخراجها إذا استمسكنا بالعامل الذي يخص قضيتنا ، بكل اخلاص الاطفال وبراءتهم .

هذا المفهوم عن الحقيقة والخطأ غير واقعي بالمرة . فالنظريات العلمية تبدأ كتراكيب متخيلة - انها تبدأ كالقصص ؛ كما أن هدف النقد أو التنقيح في التفكير العلمي هي أن نجد ماإذا كان لهذه القصص صلة بواقع الحياة العملية أو لم يكن . لذلك ليست الحقيقة تجريبية أو نظرية ، هي نقطة البداية في البحث العلمي بل هي الاتجاه الذي يتحرك بموجبه التفكير العلمي . ان صحة هذه الموضوعة

تستتبع أنه لايمكن التمييز بين الاعتبارات الجمالية للعالم في العلم والشعر، بحسب أصولها . فهي تبدأ متوازية، لكن كلا منها ينحو نحوه الخاص في مرحلة متأخرة . كلنا يروي حكايات ، لكن الحكايات تختلف باختلاف الأهداف التي نتوقعها من كل حكاية ، وباختلاف أنواع التقييم الذي نقيمها به .

لم يكن اختلاف الحقيقة الشعرية عن الحقيقة العملية امراً مسلماً به على الدوام . يقول السير فيليب سدني « الشاعر لايؤكد شيئاً لذلك فهو لايكذب أبداً . ذلك أن الكذب هو أن تؤكد صحة شيء زائف . غير ان الشاعر لايؤكد . » فاذا تساوت الاشياء كان الاختيار بين مايتصل بالحقيقة ومايهجرها، وسيقع الاختيار على الحقيقة . أما اذا كان الاختيار بين ماهي عليه الاشياء وبين مايجب أن تكون ، فان الأولى اختيار مايجب ان يكون في حالات الاستعمال والتعلم . إن العالم مقيد بمسألة خاصة ، وكل مفهوم يصدر عن هذا الأمر الخاص ليس له إلا قوة « المشابهة الظنية » وليس له قوة الحقيقة الشعرية .



وفكرة أن الحقيقة الشعرية كشف عن المثالي . أو مايجب أن يكون ـ متسلسلة عن ارسطو الذي ألبسها معنى أخلاقياً . غير ان الأستاذ بوتشر لاينسبها لأرسطو . ويقول ان سبب نسبتها اليه قوله « الشعر أعمق فلسفة وأرفع من التاريخ » ( ويمكن أن نضع العلم موضع التاريخ ) وقد قال ماقال لأن الشعر يكشف عما يجب أن يكون على ضوء الفهم الصحيح لنوايا الطبيعة وليس لأعمالها التي تأتي فجة ناقصة . فالشاعر يتبين الهدف الذي تعمل من أجله الطبيعة ولا تنجزه بدقة . وبذلك فالشاعر امرؤ فوق الطبيعة ، وهو الناطق عن أعمال لم تفلح في انجازها .

يغني مفهوم أرسطو الحقيقة العلمية ، أو أنه يبدلها بحقيقة أرفع تمثـل

البرهان على بصيرة أعمق وأوسع – حقيقة هي من الرفعة بحيث تخسر الطبيعة إذا لم تتبعها .

هذا التفسير يرجع الى العهود الكلاسيكية ولم يعد بدافع عنه أحد ، وهذا لا يعني أن أحداً لم يعد يؤمن به . أما التفسير الثاني للحقيقة الشعرية فيقال إنه يمثل حقيقة ليست علوية بل من نوع آخر . فهي تحمل مفهوماً بديلا او مجموعة من البدائل تعني فهمنا العملي بأن تجعلنا نندفع ونفكر في «مجـــال أوسع من العملي» .

في هذا المفهوم الثاني للحقيقة ، سيحكم بصحة بناء من الأفكار الخيالية – كالاسطورة مثلا ، خاصة إذا تدخلت فيها عوامل سحرية – إذا كانت متماسكة في مجموعها كوحدة ، ليس فيها تناقض داخلي ، ولا نهايات سائبة ، وأن تواجه ما هو غير متوقع . ليس بالامكان كلمة واحدة أن تصف هذه المجموعة من الخصائص ، لكن أية قصة أو نظرية أو صورة عن العالم أو بنية خيالية من أي نوع – في وسعها أن «تكون معنى» يمكن أن «نؤمن به» – تخضع لهذا المفهوم. لا ريب في أن جميع النظريات العلمية يجب أن تكون معنى ، ولكن يضاف إلى ذلك قدرتها على التلاؤم مع الواقع ، كي تكون صحيحة عند التجريب . ان عدم القدرة على فرض هذا الشرط الأخير فتح لنا عالماً أوسع وأكثر تنوعاً وأدعى إلى الثقة من الحياة الواقعية .

لقد ذكرت الأساطير . حين درس ليفي شتراوس تفكير المتوحشين ، نبذ الاعتقاد التقليدي بأن الأساطير سخافات بدائية وأنها تركيبات بريئة سخيفة لا تمثل سوى مرحلة أولية في تطور التفكير العلمي . بل على العكس : « بوسع المرء أن يفكر بالدقة الهائلة للتفكير السحري والأعمال الشعائرية كتعبير عن فهم

لا شعوري لحقيقة الحتمية ، وهو الشكل الذي توجد عليه الظاهرة العلمية . »
وبدلاً من أن نعارض بين السحر والعلم « من الأفضل أن نقارنهـــما كمنهجين متوازيين للاستطلاع العلمي . » أو « كمستويين علميـين تخضع بموجبها الطبيعة للاستطلاع العلمي » و « كلاهما صادق » .

كان ليفي شتراوس يريد أن يقول ان الاسطورة « تكون المعنى » مثلما أن النظريات العلمية التقليدية « تكون المعنى » . ولم يشعر بأن فشل الاساطير في قياس الواقعة – أي في اجتياز أعلى امتحان يؤهلها للتلاؤم مع الحياة الواقعية – لا يؤهلها لحيازة الصفة « العلمية » . ويخبرنا شتراوس بأن بعض أهالي سيبيريا يؤمنون بأن لمس منقار طائر نقار الخشب يشفي وجع الضرس :

« قد ينهض الاعتراض بأن علماً من هذا النوع ليس له تأثير عملي . والرد عليه هو أن هدفه الرئيسي ليس عملياً ، فهو يلبي تطلبات فكرية بدلاً من أن يلبي حاجات عملية ... فليس السؤال الصحيح هو ما إذا كان لمس منقار الطائر يشفي عملياً وجع الضرس ، بل ما إذا كنا ننظر إلى ضرس الرجل ومنقار الطائر كشيئين متلازمين ( ان استعمال هذا التطابق لأهداف علاجيـة هو أحد الاستعمالات الممكنة ) وما إذا كان في وسعنا ادخال هذا النظام الأولي في الكون من خلال هذه التصنيفات » .

هذا بيان جلي عن قضيته ، ولست أجدها مقنعة بالمرة . إنني لأتساءل : طلبات من ستلبى : طلبات المتوحشين أو علماء الانسان ؟ وبأي معيار سنعرف ما إذا كان عالم الانسان نفسه لا يبتدع أسطورة عن الأسطورة ، علم أساطير ميتافيزيقي ؟ أو ان يميل أحد الموجهين يوماً إلى طريقة في التفكير أعظم نجاعة؟ المسألة هي أن تكوين المعنى والايمان به شرطان ضروريان ، وليسا بكافيين في عملية

التعقل التي تدعي العلم أو الادراك العام . ان عـالم الأساطير عالم ، تكون فيه المتناقضات صحيحة ، وهو عالم لا يكون فيه نقيض الحقيقة زائفاً بل يعتبر حقيقة أخرى ، وإن كل حقيقة تروي قصة تختلف عن سابقتها ، أو أنها برهان على تفسير العالم يختلف عن نقيضه . إن كل أسطورة أو مجموعة مـن الأعمال السحرية قد تخدم الهدف أو مثيله . وليست الحجة التي أوردها ليفي شتراوس ليؤكد بها النظرة الشائعة من أن الأساطير نوع من التحسس التقريبي للعلم ، أو هي أولى المحاولات لتكوين المعنى من تعقيدات هذا العالم ، ليست حجته هذه في نظري إلا لتبرير النظرة الشائعة . لأن الأساطير ليست حقائق واقعية ، بل هي في أفضل حالاتها بنيات مشابهة للحقيقة ، أو نوع من الترشيح لما يمكن أن يكون حقيقة ، لكنه ترشيح معفى من الامتحان .

ان الرجل العادي لا يلاحظ على الدوام ناحية القصور في مجرد تكوين المعنى وتبادل الرأي . ان نظرية فرويد في التحليل النفسي أسطورة تستجيب لأوصاف ليفي شتراوس . فهي توجد بعض النظام في الأشياء المشتتة ، كما أنها تجمع الشتات وتكون المعنى ولا تترك نهايات سائبة ولا تفتقد مطلقاً إلى الشرح . هذه النظرية تقدم في حالة الارتباك الراحة والخلاص . ولكن ماذا عن نواحي العلاج فيها ؟ إنها تخرج بلباقة مـن مأزق منقار الطائر ، لأن معظم المفكرين المعتمدين ، أو ان الرأي الشائع بين الناس يرى غاية التحليل النفسي المعالجة والشفاء . بل إن هدفها اضفاء فهم أكثر جدة وعمقاً على شروط موضوعها وعلى طبيعة العلاقة بين المريض ( الموضوع ) وبين بقية الناس . ان هذه النظرية تضرب حول المريض بنية اسطورية ذات معنى قابل للتصديق بصرف النظر عن صحته أو خطئه . وقد تستطيع بنية أخرى أن تقدم مثل ذلك للمريض أو أقل منه .

ينبذ الطب العقلي الآن فكرة المعالجة ويبدلها بفكرة « الشفاء » . فالمجنون يشفى عندما تترتب أفكاره وينشىء علاقات اجتماعية ليس فيها جنون ، أي خالية من التناقض وعداوة المجتمع والاستلاب . ولقد حـــل « الفهم » محل « الشرح » ، والفهم هنا يعني عملية الادراك التي يكتشف فيها الطبيب معنى النظام الفكري الذي يدفع المجنون إلى أفعاله .

ففي علم النفس الفرويدي كما في الأساطيري ، لا معنى للموافقة العقلية أو عدمها . فالمسألة مسألة قناعة ، أي أنك تقع في شرك الخطة التي يفكر بموجبها الكاتب ، أي أنك تستسلم له وتستنبط الأوهام من أجل ذلك .

إنني لشديد الأسف أن تكون هذه المعالجات النفسية شديدة الأذى ، لا لأنها ضارة أو فاشلة إنما لأنها تمثل طرازاً من التفكير يعيق نمو فهمنا للأمراض العقلية . لنأخذ على سبيل المثال ضعف العقل كموضوع حقق فيه الطب العقلي بعض النجاح . فإذا كان لدينا طفل ضعف العقل بدا سليماً حين ولد : ماهي علته الآن ؟



هل دفعته بعض مشاهداته المنسية لتناقضات الحياة إلى الانسحاب إلى عالمه الداخلي الصامت ؟ أم أن في بنيته نقصاً في المورثات ؟

نوعان من الأسئلة يطرحهما المحلل في العيادة والطبيب في المخبر . ان الطب العقلي النظري ينبذ فكرة السبب العضوي للشذوذ، بينما يريدها العالم أن تكون صحيحة . فاذا وجد في العلم والطبابة شيء مشابه للنقد الأدبي ، فلا يجوز ان نبحث فقط في ما له سبب يجعل الناس يؤمنون به ، بل في الأنواع التي يريدون أن يؤمنوا بها ، وفي التاريخ الثقافي للكيفية التي جعلت الناس يخضعون لعادتين أو أكثر من عادات التفكير التي لا يمكن أن تتوافق معاً .

ينتج مما تقدم أن مدارس علم النفس - من فرويدية وغيرها - تتطرف في الأخذ

بمفهوم للحقيقة يمت الى الملة الأدبية في جوهره ، لكن نقيض الحقيقة ليس الخطأ بل حقيقة أخرى مماثلة .

قلت في مطلع الدراسة ان قصدي أن أبين كيف أن العلم يميل الى طرد الأدب ، وأن الأدب يميل الى طرد العلم من جميع المجالات التي يدعيها كلاهما لنفسه ، وبخاصة مجالات التعلم التي تتعلق بالسلوك البشري في أوسع معانيه .

ان العـــلامات المميزة لادعاء الأدب في العلم ، كما يتبين من هذه الدراسة ، هي :

أولاً - ثمة ادعاء صريح أو ضمني بأن الأدب أعمق بصيرة مـــا ينجزه العلماء في مخابرهم أو المؤرخون او اللغويون أو الفلاسـفة التقليديون ، وبصيرة الأدب تحلق وراء العالم الصغير لأنابيب الاختبار والرسوم التخطيطية ووسـائل القياس ، أي وراء الوقائع .

ثانياً - ثمة ترابط في أعلى درجات المخيلة مع الفشل أو الفتور في تطبيق العملية النقدية بحيث لم تعد ملـكات النقد والابداع تعمل معاً بحيوية بل تميـــل الى التنافس ، ومع هذا الترابط ينشأ المعسكر الذي ينكر أهمية الالتزام بالتقويم أو بالتبرير ، وقد يذهب مذهب انكار التفكير العقلاني .

ثالثاً - هناك الأسلوب الذي تعلن به حقائق المخيلة . وهو أسلوب قد يبهر ويخدع في البداية ، لكنه في النهاية يربك ويقرف لأنه يستغل الاستعمال البلاغي الفاسد للغموض .

قد يتساءل المرء إذا ظلت هذه الاعراض وراء متناول النقـــد ، واذا ركب أصحاب هذه الانحرافات رأسهم في انكار مبادىء البرهان أو العلاج أو أي نوع من أنواع التقويم ، وافلتوا من كل العقوبات التي تفرض على الفيزيائيين

أو المؤرخين أو العلماء التجريبيين ؛ فأي شيء يوقف اتساع نفوذهم وتظاهرهم الذي لا حد له .

الجواب بسيط . حين تتغير « الموضات الفكرية » سينساهم الناس كما نسوا الفلاسفة الرومانتيكيين في القرن السابع عشر أو فلاسفة المناهج في القرن التاسع عشر . وهذا اسوأ مصير ينزل بهم .

# احذروا الصهيونية

تأليف : يوري إيفانوف

عرض وتلخيص

ميشيل كيلو



يعد هذا الكتاب ليوري إيفانوف ، الكاتب السوفياتي الذي عاش فترة طويلة في اسرائيل، ثغرة كبيرة في الفكر السياسي الاشتراكي . لقد أشار لينين أكثر من مرة الى أن الصهيونية تشكل تياراً رجعياً للبرجوازية اليهودية ، كما أشار مرات عديدة الى ضرورة تحليل القوى المناهضة للاشتراكية تحليلاً حياً ومفصلا . ولكن الصهيونية خرجت لسنوات طويلة من حقل الرؤيا الاشتراكية وبقيت متوارية في ظلام فكري مطبق ، حتى بعد أن اتضحت بالدلائل المحسوسة ، منذ نهاية القرن الماضي وحتى أيامنا هذه ، طبيعتها المعادية للاشتراكية والثورة

(١) احذروا الصهيونية - ترجمة احمد داود - منشورات وزارة الثقافة - دمشق ١٩٦٩ .

التحرر الوطني ، والمغرقة في رجعيتها . ان كتاب « احذروا الصهيونية » يمثل محاولة جادة لدراسة وتحليل هذه الظاهرة الرجعية الامبريالية ، دراسة لا تقتصر فقط على مناحيها التطبيقية ، بل تتناول كذلك أسسها النظرية وارتباطاتها الواقعية . ونحن نأمل ألا تكون هذه الدراسة رد فعل فقط على ما قامت به الصهيونية في عدوان حزيران ضد العرب ، بل أن تمثل خطوة أولى على طريق « تحليل هذه القوة المناهضة للاشتراكية تحليلاً ملموساً ومحسوساً » كائناً ما كانت الشعارات التي ترفعها ، والمناطق التي تسكنها .

. . .

يقسم المؤلف كتابه الى خمسة فصول هي :

١ – بين الوهم والواقع

٢ – حين ترمى الحجارة وحين تجمع الحجارة



٣ – متاهة .. لكنها مفضوحة

٤ – أمام الخيار

٥ – إحذروا الصهيونية .

**أما في المقدمة القصيرة التي كتبها المؤلف لكتابه فهو يطرح سؤالاً هاماً وأساسياً حول تلك القوى التي استطاعت لأعوام طويلة أن تخلق نوعاً من ( التوازن ) بين اسرائيل من جهة والدول العربية من جهة اخرى، والتي استطاعت أن تجعل قسماً من الرأي العام في بلدان اوروبا الغربية والولايات المتحدة يقف، وفي الوقت المناسب ، الى جانب العسكريين الاسرائيليين، والتي قامت بعمليات التجسس وكشف العديد من أسرار الدول العربية العسكرية والمدنية ، وقامت**

بتغطية حاجات اسرائيـــل العسكرية والمالية »(١)، ويجيب على تساؤله بأن « الحديث عن التعاون المتبادل بين العسكريين الاسرائيليين والاوساط الحاكمة في الدول الامبريالية » (٢) .. لا يكفي للاجابة عن هذه التساؤلات ، وأنه « لا بد من الحديث عن حلقة وصل كان لها الدور العملي في تأمين كل الاستعدادات اللازمة للتوسع الاسرائيلي المرحلي (٣) » .. « هذه الحلقة هي اتحـاد الصهاينة العالمي الذي لعب دور النفق السري بين أكثر القوى رجعية في الدول الامبريالية ، وبالدرجة الأولى في الولايات المتحدة وبريطانيا وألمانيا الغربية ، وبين العسكريين الاسرائيليين (٤) » .. ويؤكد الكاتب على أن الكونسرسيوم الصهيوني الدولي المتمثـــل في المنظمـــة الصهيونية العالمية وفرعها الحقيقي ، المؤتمر اليهودي العالمي ، انما هو من اضخم اتحادات رؤوس الأموال ، وهو « الوزارة الأرضية لشؤون يهود العـالم اجمع ، ومركز للجاسوسية الدولية ، وجهاز إعلامي ودعائي على مستوى عال من التنظيم »(٥) ، كما يملك هـــذا الكونسرسيوم ٨٠٪ من الأراضي ، و ٩٠٪ من الصناعات في اسرائيل ، بحيث تلعب طبقتها الحاكمة « دور الشريك الصغير فيـــه » (٦) . هذا الكونسرسيوم العالمي متمثلاً في المنظمة الصهيونية العالمية يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالاحتكارات الضخمة للدول الامبريالية وفي مقدمتها الولايات المتحدة ، ولديه ، مثل الاحتكارات الامريكية « مجال واسع » لمصالحه في الشرق الأدنى ، ولهـذا فان دوره في هذه المنطقة ليس دور صبي أوكلت اليه مهمة ما ، بل هو « يستخدم » « كرب عمل » الأوساط الحاكمة الاسرائيلية لتنفيذ مخططاته ومآربه التي لا تقف حدودها عند نقطة معينة كقناة السويس مثلاً ، أما إزاء الاحتكارات الامريكية ،

---

(١) احذروا الصهيونية : ص ٨ .

(٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ) احذروا الصهيونية : ص ٨ ، ٩ .

« فهو لم يلعب بعد دور المشترك الأخير في تقاسم ما يغنمه اللصوص »(١) .

بعد هذه المقدمة التي يضع المؤلف فيها الحركة الصهيونية وإسرائيل في مكانها الصحيح من الصراع القومي والطبقي المحلي والعالمي ، ينتقل الى موضوعه الاساسي : الصهيونية بين النظرية والتطبيق .

## ١ - بين الوهم والواقع :

« نشأت الحركة الصهيونية وتكونت ايديولوجياً في نهاية القرن التاسع عشر ، فترة المعارك الطبقية الحادة التي خاضتها البروليتاريا الدولية ، وفترة انتهاء عملية تحول الرأسمالية الى امبريالية » (٢) .

وككل ايديولوجيا امبريالية تمتاز الصهيونية بتناقض الصورة التي تقدم نفسها بها مع محتواها الحقيقي . وقد بدأت الحركة الصهيونية نشاطها بأكذوبة « أن اليهود ظل يراودهم حلم العودة الى فلسطين عبر آلاف السنين »(٣) ، فكتب نورمان بنتفتش ، وهو صهيوني بريطاني : « ان الصهيونية قديمة قدم أسر الشعب اليهودي وتدمير الهيكل من قبل نبوخذ نصر » (٤) ، كما كتب هوارد ساشار ، وهو صهيوني بريطاني ايضاً : « ان صهيون لم تكن مجرد أضغاث أحلام . لقد كانت تحف بها قلوب اليهود من شتى بقاع العالم » (٥) . أما الايديولوجي ناحوم سوكولوف فيؤكد أن الصهيونية « تبقى على مر آلاف السنين المثل الاعلى الذي باسمه كان افضل ابناء شعبنا يعملون ويناضلون ويعانون ويموتون » (٦) ، ويضيف جامتس براندز : « منذ تدمير الهيكل ، أي مايقرب من الفي عام ، لم يفارق اليهودي حنينه الى فلسطين » (٧) . كل هذه التصريحات تهدف بالدرجة الاولى الى تبرير الصهيونية وتطلعاتها الامبريالية ، وإضفاء طابع تاريخي عليها ، وإظهارها و كأنها



---

(١) احذروا الصهيونية : ص ١٠ .

( ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ) احذروا الصهيونية : ص ١٩ ، ٢٠ .

رديفة « التاريخ اليهودي » . إلا أن الصهاينة يعلمون أن ما يسمى « بالتاريخ اليهودي » لم يكن شيئاً خارج الزمان والمكان كما يصورون ، بــل هو مرتبط بالحركة الواقعيــة للشعوب التي عاش اليهود بينها واندمجوا فيها في كثير من الحالات ، ولهذا فهم يتحدثون عن هذا التاريخ بعيداً عن الوقائع ، ويحاولون اضفاء مسحة دينية عليه تقترب في كثير من الأحوال من جو الوهم الذي يسود العهد القديم الذي يؤرخ لتاريخ الهجرة والنزوح من مصر الى فلسطين والاستيطان فيها بروح « شعب الله المختار » . ان الصهاينة لم يكلفوا انفسهم عناء البرهنــة على « قدم » الحنين المزعوم الذي واكب « التاريخ اليهودي » للعودة الى فلسطين ، بل اكتفوا بتكرار مزاعمهم حول هذا « الحنين » ، وذلك لاقناع قادة البلدان الامبريالية في مطالع القرن العشرين بأنهم انسب حرس لمصالحهم في هـذا الجزء الهام من العالم . ولم يقدموا تاريخهم في هذا السياق إلا كتبرير يُسهّل على قادة الدول الامبريالية عملية منحهم فلسطين ، خاصة وان في هذا التاريخ مالا يسر الصهاينة على الاطلاق . كتب المؤرخ الصهيوني سالو بارون يقول : « لقد كان ممثلو الجالية اليهودية البابلية يفرضون على اليهود جميعاً وفي كل البلدان ان يصلّوا بالدرجة الاولى **من أجل ان يحفظ الله حياة ابناء بابل الحكماء** . ان كثرة اليهود وتحسن اوضاعهم المادية في بابل جعلت آباء الروحيين هناك يؤكدون انه هنا **(في بابل)** يتفجر نبع الحكمة والنبوة ، ومن هنا بالذات **( وليس من اورشليم )** يشع برج الفجر الوضاء على شعبنا بالنور . »(1) . ويقول ليوفارد شتاين : « لقد وجدت الجاليات اليهودية المزدهرة منذ القدم في مصر وسوريا وبلاد ما بين النهرين وفي إيطاليا واليونان . ولقــد توزع اليهود من فلسطين قبل انحطاط الدولة اليهودية وسقوطها بأمد طويل . وفي الواقع فقد كان عدد اليهود في فلسطين قبــل المسيحية ٧٠٠ الف نسمة ، بينما كان عددهم في الامبراطورية الرومانية وحدها في تلك الاثناء ما يقرب من اربعة ملايين ... » (٢)

---

(١) و (٢) احذروا الصهيونية : ص ٢٦ ، ٢٧

كما يؤكد المؤرخان الامير كيان سكراموزا وماكاندريك ان الامبراطور الروماني ( كلوديوس ) أمر اليونانيين في الاسكندرية : « بوجوب احترام الحريات التي منحها اغسطس لليهود . وفي الوقت ذاته فقد انذر اليهود بألا يحاولوا اغتصاب امتيازات اكبر ... وألا يقوموا بتشجيع الهجرة السرية من فلسطين الى مصر ! » (١)
وفي عام ٥٣٨ ق . م سمح كورش امبراطور فارس بعودة اليهود الى اورشليم ، «ولكن السواد الأعظم آثر البقاء في بابل »[٢] كما يقول الحاخام الاكبر في بريطانيا عام ١٩٤٧ . ويعلق يوري ايفانوف على ذلك بقوله : « هكذا كان يبرز في كل عصر وضع معين لايرضى عنه الصهاينة . فقد كان على جميع الدروب في رأيهم ان تقود اقدام اليهود الى فلسطين بالذات ، ولكن الدرب الى فلسطين لم تكن لتلائم تلك السفرات التجارية البعيدة التي بددت شمل الجاليات اليهودية في شتى ارجاء المعمورة » . (٣)

لماذا لم يرغب اليهود في العودة الى فلسطين ، رغم الفرص العديدة التي أتيحت لهم ؟ للاجابة على ذلك نذكر حقائق التاريخ الاساسية ، وحقائق التاريخ هذه تتحدث عن وجود يهود موسرين ، ويهود « عاديين » كانوا يمتهنون الزراعة ومختلف الحرف والتجارة الصغيرة . لقد اندمج هؤلاء بالمجتمعات التي كانوا يعيشون بين ظهرانيها ، وبلغ من ذلك أنهم اقلعوا في معظم البلدان عن استخدام اللغة العبرية كوسيلة للتفاهم . فأخذوا في المانيا يرتلون الأناشيد باللغة الألمانية . واعتبر المؤتمر القومي العام لممثلي اليهود في عام ١٨٨٥ أن « اميركا هي ارض صهيون » وأعلن : « نحن لا ننتظر العودة الى فلسطين » ، كما حذف اليهود الالمان قبل ذلك كل ما كان يذكرهم باورشليم : « شتوتغارت هي اورشليم » . وحوّل اليهود في مناطق اخرى صلواتهم من اللغة العبرية الى اللغة الآرامية والسريانية ،



(١) و (٢) احذروا الصهيونية : ص ٢٩ ، ٣٠
(٣) احذروا الصهيونية : ص ٣١ .

وكتبوا باليونانية كتبهم الدينية المقلدة للتوراة . هذا ما يتعلق باليهود العاديين الذين كانوا يسيرون بسرعة نحو الاندماج مع مجتمعاتهم ، حتى قبل المسيحية . أما الموسرين فقد سخروا لصالحهم افراد الجاليات اليهودية الذين حاولوا فرض عزلة عليهم تفصلهم عن مجتمعاتهم : « لم يكن من قبيل الصدفة انه في بلاد بابل ، حيث كانت المقاصد الجشعة لزعماء تلك الجاليات اكثر حدة من اي مكان آخر ، لجأ اولئك الزعماء الى فرض عقوبة الفصل على كل من يشق عصا الطاعة والولاء لابناء الدين الواحد ، فظهر اول كنيس يهودي آنذاك »[١] ، كما يؤكد جيمس باركس . أما الانكليزي الصهيوني ساشارفيؤ كد: « لقد جاء قيام الجيتو الاول في اسبانيا وصقلية في الفترة المبكرة من القرون الوسطى بناء على طلب اليهود انفسهم »[٢] . ويكتب ليلينتال بناء على ما اورده الصهيوني سالوبارون : « ... لقد اصر حاخامات اليهود وربابنتهم على الانفصال في شؤون السياسة والدين ، حتى ان القوانين الاساسية الناظمة لحياة الجيتو التي اقرت في البرتغال جاءت بناء على طلب يهود البرتغال انفسهم » . (٣)

لقد تبلور هذان الخطان عبر التاريخ القديم والحديث ؛ اغلبية تسير نحو الاندماج ، وأقلية ثرية تعارضه وتقيم « كياناً خاصاً» لليهود في المجتمعات المختلفة مستندة في ذلك الى عزلهم عن شعب البلد الذي يقيمون به إما عن طريق المهاجر الخاصة ( الجيتو ) ، أو عن طريق إثارة حنق المجتمع عليهم ، أي بواسطة اللاسامية . وقد ازداد هذان الخطان تبلوراً مع تقدم المجتمعات الحديثة ، وبعد الاحداث البارزة كالثورة الفرنسية ، وسقوط النظام الاقطاعي ، ونمو البروليتاريا الاوروبية . لقد اجتاحت هذه الاحداث «مصير الشعوب أجمع ،وكان لها قوة هائلة في تحطيم حواجز الجيتو التي اقيمت في القرون الوسطى»[٤] . ولقد

(١) احذروا الصهيونية : ص ٢٥ .
(٢) و (٣) احذروا الصهيونية : ص ٤٠ .
(٤) احذروا الصهيونية : ص ٤٨ .

كتب لينين واصفاً التحول الذي حدث في حياة اليهود: «في اوربا كلها كان سقوط القرون الوسطى وتطور الحرية السياسية يسيران جنباً الى جنب مع رفع الوصاية السياسية عن اليهود، ومع انتقالهم من لغتهم العامية الى لغة الشعب الذين يعيشون بين ظهرانيه، ومع التقدم الاكيد لاندماجهم مع السكان المحيطين بهم» (١). لقد اهتزت دعائم «اليهودية» التي كانت نقطة الارتكاز الرئيسية للتجار واصحاب البنوك والمصانع من اليهود، واندمج نضال اليهود مع الطبقة العاملة الأوروبية، «وبينما كان الكادحون اليهود بين خمسة عشر الفاً من المتمردين الذين نفتهم السلطات الفرنسية دون محاكمة بعد ثورة ١٨٤٨؛ كان آل روتشيلد وبيتان يقدمون القروض لبابا روما، وللجنرال لويس كافينياك الذي قام بسحق ثورة ١٨٤٨ في فرنسا، ولمترنيخ في النمسا»[2]. وقد حدث نفس الشيء في روسيا فقدم هوراتسي جينتسبرغ، أحد أثرياء اليهود، الهدايا للقيصر كتعبير عن امتنانه لقتل العصاة بالرصاص. وكان العمال اليهود بين هؤلاء العصاة بالطبع.

لقد افزع هذا التطور اثرياء اليهود الذين فهموا ان اندماج الجماهير اليهودية في اوروبا يعني نهاية سيطرتهم عليها، ولهذا فكروا «بجمع شمل اليهود في دولة قومية خاصة»، مع أنه لم يكن يهمهم في البدء مكان «جمع الشمل» هذا، الى ان بدأ الوطن العربي يدخل حلبة الصراع بين القوى الامبريالية، وخاصة بين انكلترا وفرنسا. لقد بدأت هذه العملية التاريخية مع حملة نابليون على مصر فكان نابليون يرغب في توطين اليهود في سورية لحماية مصالحه الاستراتيجية في هذه المنطقة. وقد نبه مشروعه هذا الاستعمار البريطاني الى أهميته، فكتبت جريدة التايمز اللندنية في ١٧ آب ١٩٤٠ مقالاً تبحث فيه مصير سورية بعد اخراج ابراهيم باشا منها، فقالت: «ان الاقتراح القائل بتهجير اليهود الى بلاد آبائهم ليسكنوها

(١) احذروا الصهيونية: ص ٤٨.
(٢) احذروا الصهيونية: ٥٠.

تحت حماية خمس دول لم يعد يشكل مسألة جديرة بالبحث فقط ، بل هو موضوع قائم فعلاً ويتطلب دراسة جدية » (١) ، وفي نفس العـــام طالب السياسي الانجليزي شافتسبوري وزير خارجية بريطانيا بالميرستون « بتحويـــل سورية الى مستعمرة انجليزية ، ولأن هذا يتطلب رأسمال وايد عاملة .. فاننا اذا ما درسنا حتى النهاية مسألة عودة اليهود من زاوية التمركز والاستيطان في فلسطين لتبين لنا ان هذا ارخص السبل وأنجحها لسد كل حاجيات هذه المنطقة الفقيرة بالسكان » (٢). وقد فضح هربرت سكفيت رئيس وزراء بريطانيا في مذكراته منطق خلفه لويد جورج ، فكتب يناقش أحـــد المخططات الكثيرة للاستيلاء على فلسطين :

«ومن دواعي العجب أن لويد جورج كان احد المدافعين عن الاقتراح . وليس من حاجة للقول بأن ما يهمه ليس اليهود ، او ماضيهم ومستقبلهم ، لكنه كان يعتبر انتقال الاماكن المقدسة الى حماية فرنسا « الملحدة » كارثة حقيقية »(٣) . وفي العقـــد السابع من القرن التاسع عشر أنشئت في انجلترا الشركة الاستعمارية السورية الفلسطينية » بقصد « ضمان استيطان سوريا وفلسطين والبلدان الاخرى المجاورة لها من قبل الفئات المرضي عنها »(٤). هكذا لم يبق على الصهيونية سوى الظهور ، وإلا « فستجد انجلترا نفسها مضطرة لاختراعها »(٥) ، كما قال الزعيم الصهيوني ماكس نوردان في مطلع القرن العشرين .

لقد التقف الرأسماليون اليهود الفرصة فسارعوا عام ١٩٠٢ الى تأسيس « التروست الاستعماري اليهودي » برأسمال قدره (٢) مليون جنيه استرليني ، مقتدين في ذلك بسيسيل رودس الذي استعمر مناطق مساحتها ٧٥٠ الف ميل مربع في افريقيا ، مع ان رأسماله لم يكن يتجاوز نصف مليون جنيه استرليني

(١و٢) احذروا الصهيونية : ص ٥٠ ، ٥١ .

(٣و٤و٥) احذروا الصهيونية : ص ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ٥٨ .

ولقد بدأت الصهيونية نشاطها « كمؤسسة رأسمالية صرفة » ، كما قال سوكولوف ، وكان المساهمون فيها من كبار المحتكرين المرتبطين ارتباطاً وثيقاً بالاوساط الامبريالية .

## ٣ – حين ترمى الحجارة وحين تجمع الحجارة[1] :

بعد سقوط أسوار جيتو القرون الوسطى التي كانت تؤمن لزعامة الجاليات اليهودية سيطرتها على جماهير اليهود ، وبعد الوهن الذي أصاب اليهودية (« الجيتو الروحي »)[2] نتيجة لتطورات العصر الجديد ، بدأت القوى المهتمة بالسيطرة على اليهود بخلق أشكال جديدة للجيتو ، وكانت الايديولوجيا الصهيونية هي هذا الجيتو الروحي الجديد .

لقد أدرك ايديولوجيو الصهيونية أن اليهودية لم تعد صالحة كجيتو روحي لليهود ، ولكنهم حاولوا بعثها من جديد عن طريق الصهيونية التي صوروها و كأنها قديمة قدم التاريخ . يقول أحاد هاعام : « ليس اليهود فقط هم الذين تخلوا عن الجيتو ، بل الجيتو أيضاً تخلى عن اليهودية ... التي تحطمت كل تحصيناتها الدفاعية نتيجة تماسها مع الثقافة الجديدة .... وحينما تتخلى اليهودية عن حواجز الجيتو ، فانها ستقع في خطر فقدان الـ « أنا » الخاصة بها ، أو على الأقل ستفقد كمالها القومي ، وربما ستنقسم الى

---

(١) لا بد أن نشير هنا الى وجود بعض الأخطاء في ترجمة هذا الكتاب كقول المترجم مثلاً في الصفحة الثامنة « واضح أن مثل هذا العمل الواسع المتشعب من شأنه أن **يضاعف** كثيراً من امكانيات استخبارات اسرائيل وجهازها الدعائي » ، والصحيح أن يقال : . . . الواسع **المتشعب يفوق كثيراً** ... الخ . كما يوجد خطأ في ترجمة هذا العنوان ، فهو ليس « حين ترمى الحجارة وحين تجمع الحجارة » ، بل « لتفريق الحجارة وقت ولجمع الحجارة وقت » ، وهو مأخوذ من **سفر الجامعة ، الاصحاح الثالث .**

(٢) احذروا الصهيونية : ص ٧٠ .

أشكال شتى يحمل كل منها طابع وجوده الخاص تماماً ، كتلك البلدان التي يتوزع اليهود فيها »[1] . لقد كان على الصهيونية أن تعيد خلق «الأمة اليهودية العالمية» [2] ، كما قال مارتن بوبر ، وذلك عن طريق « جعل الدعاية لأفكارنا جزءاً لا يتجزأ من العبادة ( اليهودية ) »[3] ، يضيف هيرتزل الذي كان يؤمن كسواه من النظريين الصهاينة أن الديانة اليهودية لا تمثل سوى مرتبة ثانوية في سلم القيم الصهيوني .

ما هي مقومات « الأمة اليهودية العالمية » كما يفهمها الصهيونيون ؟ . إنها « وحدة الثقافة اليهودية » و « ماضي اليهود التاريخي ذي السمات المتميزة » و « طريقة تفكيرهم الخاصة » . أما عن « وحدة الثقافة اليهودية » فقد كتب ماكس نورداو قائلاً : « إننا سنحافظ على الثقافة الأوروبية ... وسنسخر من النصائح التي تدعونا لنتحول الى آسيويين » [4] . وكتب هيرتزل معرفاً الأمة : « الأمة هي مجموعة من الناس تكونت تاريخياً واكتسبت سمات مميزة بفضل الحياة المشتركة ، وحافظت على وجودها ككل موحد بفضل وجود العدو . فلو أضفنا الى هذا كله كلمة «يهودية» لصار في مقدوركم أن تفهموا قصدي عندما أتكلم عن الأمة اليهودية »[5] . إن السمات المميزة للأمة ليست مسألة جوهرية بالنسبة لهيرتزل ، وإلا لكان تحدث عنها بشيء من التفصيل ، ولهذا اكتفى بالتحدث عن « العدو » مؤكداً كل مرة أنه « اللاسامية » . إن وجود « الأمة اليهودية » رهن بوجود « اللاسامية » ، ولكن هذه باقية إلى الأبد ، كما يقول الصهاينة الذين بذلوا كل ما بوسعهم لتأييدها عن طريق افتعالها بدفع الشعوب إلى كره اليهود من جهة ، ودفع اليهود الى معارضة الاندماج في مجتمعاتهم من جهة أخرى ، وخاصة بين أوساط الطبقة العاملة . ولقد

---

( ١ ، ٢ ، ٣ ) احذروا الصهيونية : ص ٧٧ ، ٧٥ .

( ٤ ، ٥ ) احذروا الصهيونية : ص ٨٠ ، ٨١ .

فضح لينين أكثر من مرة نشاط البوند المعادي للعمال اليهود ، وأكد الصلة بين اللاسامية ومصالح الفئات البرجوازية ، واتهم البوند مباشرة بممارسة نشاط صهيوني لعزل العمال اليهود عن اخوانهم عمال روسيا وبالعكس .

لقد أكد ايديولوجيو الصهيونية أكثر من مرة الآمال التي يعلقونها على زرع اللاسامية في طريق تحرير اليهود واندماجهم ، وقد تساءل هيرتزل عام ١٩٠٢ أمام الجمعية الملكية البريطانية : « ما الذي يقدر على ارغام اليهود على الهجرة من بلدانهم وتأسيس الدولة اليهودية ؟ » ، وأجاب: «اللاساميون»(١) ، كما أشار في مناسبة أخرى الى أنه « ليس في الأمر ما يتطلب كبير جهد كما يتاح للحركة النمو والانتشار ، ففي هذا المجال يعمل اللاساميون لصالحنا »(٢) . إن الأسس النظرية للصهيونية تكمن في مفهومي « الأمة اليهودية العالمية » و « اللاسامية » المفهومين بصورة قبلية ، فالأمة اليهودية العالمية موجودة ما دام هناك لاسامية ، واللاسامية موجودة ما دامت هناك امة يهودية عالمية ، ولا تسقطان بمجرد قيام «الدولة اليهودية » بل هما تستمران الى الأبد ، ولهذا يبرر وجود « الأمة اليهودية » بوجود الأمم الأخرى ، بغض النظر عن ساميتها أو لاساميتها . هكذا تتحول الاشتراكية الى لاسامية ( يعتبر ايديولوجيو الصهيونية ماركس وانجلز ولينين لاساميين ! ) ، وتتحول الأنظمة الديموقراطية والاتوقراطية والديكتاتورية الى أنظمة لاسامية . هذا هو السياق الاستراتيجي الصهيونية ، أما تاكتيكها فهو يتغير من مكان الى آخر ، حسب درجة اندماج اليهود في مجتمعاتهم . لقد قيل ليهود أوروبا الشرقية أن الصهيونية ستقيم دولة اشتراكية : « ينبغي على الدولة اليهودية ، إذا ما انشئت ، أن تصبح دولة اشتراكية . إن على الصهيونيـة أن تندمج بالاشتراكية كي تصبح مثالاً

(١ ، ٢) احذروا الصهيونية : ص ٨٥ ، ١٠٦ .

لشعوب أوروبا كلها »[1]. أما في أوروبا الغربية فكان هرتزل يطمئن الرأسماليين الى أن « الأثرياء اليهود الذين يخفون كنوزهم الآن ، ويبطرون خلف الستائر المسدلة ، ستتـــاح لهم فرص التمتع بملذات العيش هناك »[2] ( أي في الدولة اليهودية ) . وبتحدث بينسكر بصراحة اكبر : « ... إن أفضل قوانا تتمثل في رجال المال والعلماء ورجال النشاط التطبيقي »[3] . في نفس الوقت كان « الاشتراكيون » الصهاينة يؤكدون استحالة تحرر اليهود في مجتمعاتهم : « ليس للثورة الروسية أية علاقة بالنضال من أجل مستقبلنا، لأنها لا تحل المسألة اليهودية، حتى ولا مسألة يهود روسيا، كما انها تحول بيننا وبين الصهيونية »[4]. لقد نشأت الصهيونية في أحضان البرجوازية اليهودية الكبيرة ، وكانت تعكس رغبة ومساعي هذه البرجوازية لإعادة إحكام السيطرة المفقودة على الجاليات اليهودية المنحلة ، وإذا كان هناك من ميزة لها ، فإنما هي عداؤها للاشتراكية وحركة التحرر الوطني .

٣ ــ متاهة ... لكنها مفضوحة



يمكن للمرء أن يطلق على هذا الفصل والفصل الذي يليه ( أمام الجدار ) عنوان الصهيونية في التطبيق . لقد ذكرنا أن للصهيونية طبيعة معادية للحركات الاشتراكية ولحركة التحرر الوطني . وفي هـــذا الفصل يعرض الكاتب لبعض الأحداث غير المعروفة حول الصهيونية وثورة اكتوبر .

في الثاني من أيار عام ١٩١٨ عقد سراً في موسكو مؤتمر لاحدى المنظمات الصهيونيـــة المتنفـــذة وهي منظمة « تسيري - تسيون » ، وقد حضر المؤتمر مندوبون من ٢٢ مدينة روسية كبيرة . وقد جاء في تقرير المؤتمر الختامي

( ١ ، ٢ ، ٣ ) احذروا الصهيونية : ص ١٠١ ، ١٠٢ .
( ٤ ) احذروا الصهيونية : ص ١١٣ .

ما يلي : «ان المسألة الأساسية في السياسة الروسية هي مسألة الثورة الروسية ،وخبرات الثورة الاشتراكية ، أي تجارب البلشفيك في ميادين الصناعة والمالية واقتصاد الدولة والسياسة الخارجية ... ونتائج هذه التجارب من انحطاط الدولة وتدهور الاقتصاد ... ووضع الشعب اليهودي ، والافقار الاقتصادي وتجويع الوسطاء والتجار والخدم والحرفيين نتيجة لاضطهادهم في الأجزاء المختلة من روسيا ، والوضع عينه السائد في روسيا الاشتراكية بالنسبة اليهود نتيجة لتجارب البلشفيك الذين يقتلون الصناعة والتجارة ... ان مطالبنا السياسية تبقى كما كانت عليه : **تشكيل حكومـــة تتمتع بكفاءة لايشترك فيها البلاشفة**»[1]. وقد قال ليزين ، أحد المشتركين في المؤتمر : «طالما ان البلشفية لاتزال تتمتع بقدر من القوة، فان علينا أن لانعدم الوسائل للنضال ضدها . فنحن في حياتنا اليومية نصطدم مع المؤسسات البلشفية على الدوام. ولقد أعرب المثقفون الروس عن موقفهم ضد أعمال التخريب ، وعلينا ، الى حد ما ، أن نرفض تلك الأعمال أيضاً ، ولكننا سوف نقوم بذلك في مختلف فروع الحكومة البلشفية حيث تتاح لنا فرص العمل»[2] وأكمل مندوب استراخان المخطط : «ان نضالنا هو تنظيم كل العناصر الديمقراطية لكي نقبض على زمام السلطة بأيدينا حيث تسقط البلشفية»[3] .

يعود كره الصهاينة للثورة الاشتراكية الأولى الى أسباب عديدة أهمها أن «الاشتراكية عدو قاتل... الفكرة القومية اليهودية» أي للصهيونية كجزء من الايديولوجيا الامبريالية ، وأن ثورة اكتوبر كانت ضربة عنيفة « للأمة اليهودية العالمية » لأنها فتحت أمـــام جماهير اليهود طريق الانعتاق الطبقي والقومي ، بمـــا كاد يهدد فكرة الصهيونية المركزية باستحالة التحرر اليهودي خارج « الوطن القومي » فالانهيار التام (لقد أنقذ وعد بلفور الصهيونية من هذا التهديد المميت !) . أما سبب العداء الثالث فهو حرمان الحركة الصهيونية من ثروات الرأسماليين اليهود في روسيا ومن تبرعات اليهود الروس التي بلغت سنة ١٩١٤ مبلغ ٢٣٧ مليون مارك ألماني ،

---

(١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ) احذروا الصهيونية : ص ١١٩ ، ١٢٠ .

وهو مبلغ هائل بمقاييس ذلك العصر . لقد وجهت ثورة اكتوبر الاشتراكية ضربة قاصمة للكونسرسيوم الصهيوني الدولي ، ولهـــذا فقد تركزت كل جهود الصهيونية للقضاء عليها ، فدخل الصهاينة في « حكومات » دينيكين وسكوروبادسكي وبيتليورا ، وشكلوا كتائب حربيـــة صهيونية قاتلت ضد الثورة الوليدة ، ووضعوا انفسهم في خدمة التجسس والتخريب ضد الدولة السوفياتية ، وأسسوا مختلف الجمعيات الهادفة الى تهريب ثروات الرأسماليين تحت اسماء مختلفة « كالجمعية الخيرية اليهودية » . وبعد توطد الدولة السوفياتية بدأت المنظمات الصهيونية تشن «حملة دعائية جاهيرية ضد الاتحاد السوفياتي للتشهير بالاشتراكية ، وبقصد خلق فئات من « المثقفين الليبراليين » داخل الدولة الاشتراكية ذاتها »[1] .

لقد لعب فشل الصهاينة في استعادة مراكزهم الضائعة في الاتحاد السوفياتي دوراً كبيراً في زيادة الحاح الصهاينة على غزو فلسطين ، خاصة وان اندماج اليهود مع مجتمعاتهم لم يقتصر على بلاد السوفييت فقط ، بل تعداها الى العديد من البلدان الأوروبية التي ازداد تلاحم اليهود فيها مع سواهم من طبقات الشعب ، وخاصة الطبقة العاملة ، في سياق العديد من الثورات التي شهدتها تلك البلدان . لقد رأى الصهاينة آمالهم وهي تتهاوى ، فبدؤوا نشاطاتهم لدفع اليهود نحو فلسطين عاملين لتحقيق أهدافهم بخطة مزدوجة ، فتعاونوا مع النازية في « نزع » اليهود من مجتمعهم ، وأسسوا في المانيا « معسكرات اعادة تربية » لليهود ، بقصد توجيههم نحو فلسطين ، بدلاً من ذهابهـم الى الولايات المتحدة والدول الغربية الأخرى ، وهو ما كان يحدث في معظم الاحيان . وسمحوا في نفس الوقت للنازيين بارتكاب جرائمهم ضد اليهود بقصد دفعهم الى الهجرة نحو « وطنهم القومي » ، المكان الوحيد الأمين كما كانوا

(١) احذروا الصهيونية : ص ١٣٣ .

يقولون لجماهير اليهود . هذا من جهة ، ومن جهة ثانية زادوا من ارتباطهم بسياسة كل من الولايات المتحدة والمانيا النازية على حساب بريطانيا ، فشهدت المنظمة الصهيونية العالمية في الاربعينات فترة صراع عنيف على القيادة خاضته العناصر العميلة لكل من هذه القوى والمرتبطة بها ، وليس من قبيل الصدف أن يبزغ في هذه الفترة نجم العميل الألماني القيصري ناحوم جولدمان ، كما أنه ليس من قبيل الصدف اتفاقه مع وايز رئيس « الكونغرس اليهودي الامبركي » حول مسألة انشاء كونغرس يهودي عالمي « غير صهيوني » ولقد تأسس هذا الكونغرس وصار جولدمان رئيسه وبقي كذلك حتى عام ١٩٦٨ . هذه التطورات والأحداث لم تكن تعني تحول الحركة الصهيونية عن خطب ود بريطانيا واستغلال امكاناتها الى أقصى حد ممكن . وجل ما في الأمر أن الصهاينة كانوا يتحولون من التعامل مع والعمالة للقوة الامبريالية التي كانت قائدة دون التخلي عنها نهائياً . وفي هذه النقطة يكمن في الحقيقة جوهر الصهيونية كحركة تحاول تجميع كل القوى الامبريالية حولها ، بغض النظر عن التناقضات التي تمزق هذه القوى .

## ٤ ـ أمام الخيار

«هذه أرضكم يابني اسرائيل... من النهر المصري العظيم ، الى نهر الفرات العظيم»(١)

بمثل هذه الأقوال يستقبل المهاجر في فلسطين المحتلة ، **فاذا ما كان ممن يعرفون اللغة العبرية** ، فانه سيستطيع قراءة وسماع الجملة التالية لميناحيم **بيغن** : أنتم الاسرائيليين عليكم ألا تأخذكم رحمة عندما تظفرون باعدائكم . عليكم ألا ترحموا حتى تدمروا نهائياً ما يسمى بالثقافة العربية التي سوف نبني على انقاضها حضارتنا نحن »(٢)

(١ و ٢) احذروا الصهيونية : ص ١٨٨ ، ١٨٩ .

ان شعــــار « ارغام العرب على الرضوخ المطلق » هو جوهر ومحتوى السياسة الصهيونية في فلسطين ، ويترجم جابوتنسكي هـــذا الشعار الى مستقبل محسوس فيتحدث عن أنه من الضروري « أن نخلق وضعاً من « الامر الواقع » ، ونوضح للعرب أن عليهم مغادرة أرضنا ليحطوا رحالهم في الصحراء »[1] . ويتجلى تطبيق هذين الشعارين ، تدمير الثقافة العربية ، أي الشخصية العربية المتفردة تاريخياً ، وطرد العرب الى الصحراء ، فيما قامت به الدولة الصهيونية حتى الآن حيال العرب الذين كانوا يقطنون فلسطين ، فقد طردت غالبيتهم الساحقة الى الصحراء فعلاً ، وبذلت جهوداً لئيمة لمحو الشخصية الثقافية والتاريخية المتفردة للأقلية العربية الخادمة التي بقيت في فلسطين . ولا شك أن هذا المصير ينتظر كل من سيسقط تحت الحكم الصهيوني كائناً ما كان موقعه من الحرب العربيـة - الاسرائيلية ، فقصد الصهاينة هنا هو تأكيد حتمية انتفاء شخصيتهم ما دامت الشخصية العربية قائمة والعكس .

اننا لن نتحدث بالتفصيل ، على ما في ذلك من أهمية ، عن الطرد والتشريد والفظائع التي ارتكبت بحق الامة العربية ، ولكننا نريد أن نؤكد مع يودي ايفانوف على أن هذه الأساليب لم تكن تستهدف في سياقها الأخير سوى تدمير كل امكانية لتحرر العرب عن طريق تدمير كيانهم الاجتماعي .

احذروا الصهيونية

« لم يكن ظهور وقيام دولة اسرائيل هو المنطلق الأساسي للفكرة الصهيونية القائلة ان اليهودية أسمى من كل شيء . ان ذلك المنطلق يتمثل في هـــدف اخضاع اليهودية العالمية بشتى الوسائل لارادة المركز الصهيوني السائر في ركاب الامبريالية (٢)، الأمر الذي يعني بالنسبة لبن غوريون : « تقديم المساعدات لاسرائيل سواء شاءت

(١ ، ٢) احذروا الصهيونية : ص ١٨٨ ، ١٨٩ ، ٢٣٩ .

حكومة تلك البلاد التي يعيش فيها اليهود ويخضعون لهـــا أم لم تشأ »[1]، ويعني بالنسبة لحاخام بريطانيا الأكبر : «علينا أن نفعل كل شيء من أجل ألا يبقى في العالم كله يهودي واحد يتهرب من واجبه . . . ان على الشبيبة أن تكون على أهبة الاستعداد للقتال ، وان على الآخرين لدى أول مخابرة هاتفية من اسرائيل أن يتوجهوا حالاً ودونما ابطاء الى هناك ويحتلوا أماكنهم المعينة في الجيش ، وعلى الباقين أن يلتزموا بدفع الضريبة عن كل نفس ومن كل يهودي . . . ان علينا جميعا أن نكون رهن اشارتهم حين يشاؤون»[2]

هذه المقاطع والاستشهادات تفسر الخطر الجسيم الذي تتعرض له حركة التحرر الوطني العربية وغيرهـا من حركات التحرر الوطني ، بل والدول الاشتراكية نفسها ، فالصهيونية ليست مليوني اسرائيلي ، بل هي اكثر تشعباً وقوة وسطوة من اسرائيل بكثير ، إنها ملايين اليهود الذين تتعاطف معهم أقوى امبرياليات التاريخ ، ويمكننا دون خوف الوقوع في المبالغة أن نقول أن الصهيونية صارت قاسماً مشتركاً اعظم تتلاقى عنده جهود كل البلدان الامبريالية ، وإذا كان ذلك واضحاً في شيء ، فإنما هو واضح في جعل اسرائيل قطعة من أوروبا داخل آسيا ، واعتبار القاعدة الصهيونية في فلسطين جزءاً لا يتجزأ من العالم الحر الذي حسمت اموره سلفاً ، ولا يجوز لأحد مساسه ، إذا كان لا يريد أن يغامر بخوض حرب عالمية. إن الكونسرسيوم الصهيوني الدولي الذي يهدف إلى السلطة بجميع الوسائل الممكنة في نظام الامبريالية ، هو خطر كبير على حاضر العالم ومستقبله ، ولن تقف الصهيونية عند حد ، إذا لم تضطر لذلك .



إن كتاب « احذروا الصهيونية » هو بلا شك من أهم الكتب التي صدرت في السنوات الأخيرة بلغتنا ، وإذا كان صدوره عن كاتب سوفياتي شيء مفرح ، فإن عجز كتابنا عن دراسة الصهيونية بمثل هـذا العمق والموضوعية هو أمر محزن حقاً .

---

(١و٢) احذروا الصهيونية : ص ٢٣٨ ، ٢٣٩ .

# إسرائيل أمّة مفتعلة

د. فرانتس شايدل

عرض وتلخيص : هشام الدجاني

من خيرة الدراســـات الأوروبية التي ظهرت عن اسرائيل في الآونة الأخيرة كتاب ترجمته وأصدرته وزارة الثقافة بعنوان : « إسرائيل أمة مفتعلة »[١]. والكتاب من وضع المؤلف النمسوي الدكتور فرانتس شايدل الذي حاول في كتابه ان يبرهن بطريقة علمية على عدم وجود مايسمى أمة يهودية أو عرق يهودي أو قومية يهودية . واسرائيل إنما هي كيان مصطنع يعيش على هبات ومساعدات الدول الغربية وتأييدها . وليس لهذا الكيان المصطنع أية حقوق دينية أو حضارية في فلسطين . ولعل هذا مادفع المترجم الى ان يعطي الكتاب عنوان : « اسرائيل أمة مفتعلة » .

ولأهمية الكتاب من حيث موضوعية معالجته وخطورة معـــلوماته

---

(١) اسم الكتاب بالألمانية: ISRAEL ; Selbstmordversuch durch Nationalismus أو : اسرائيل : محاولة انتحار من خـــلال التعصب القومي . ترجمة محمـــد جديد ، منشورات وزارة الثقافة بدمشق ١٩٦٩ ،

يجدر بنا أن نستعرض في جولة سريعة أهم ماأراد المؤلف ان يؤكده ويركز أضواءه الكاشفة عليه .

يتحدث المؤلف في مقدمة الكتاب عن التعصب القومي الاسرائيلي . ويصف القومية اليهودية فيقول : « قومية تعصبية تملكت في العقود الأخيرة قسماً كبيراً من اليهود كالوباء المريع » . ويرى المؤلف أن هذه القومية كانت شركاً سقطت فيه القلوب اليهودية الناشئة . وفي الوقت الذي كانت فيه أوروبا تتجاوز القومية، راح بعض اليهود يجرون كالمجانين وراء الدعوة القوميـــة الضيقة . وإذا كانت الصهيونيـــة تعني بالنسبة الى اليهود الذين يعيشون خارج إسرائيل رفض الإندماج وتخليد اللاسامية بذلك ، فهذا يعني ان الصهيونية تسير على أفضل طريق يؤدي بها الى ان تصبح حفارة قبور اليهود .

ويصف المؤلف الطغمة الحاكمة في اسرائيل، المستفيدة وحدها من فرض الأغلال القومية على اليهود ، بأنها « طغمة محترفة متعصبة تشكل أقلية صغيرة ، ولكن بيدها زمام الحل والعقد في العالم اليهودي . وهي تشكيل ثيوقراطي[٢] – قومي يتألف في المقام الأول من النخبة الروحية القديمة ».

والمؤلف لايتحامل على اسرائيل أو اليهود ، بل إن كتابه أشبه بنصيحة صادقة الى اليهود ألا يعصف بهم التعصب القومي . وهي نصيحة موجهة خصوصاً الى اليهود الأحرار والانسانيين المندمجين او المستعدين للإندماج في العالم كله، ولم يسقطوا ضحية القومية . فقد إنهارت بالمغامرات القومية شعوب أكبر وأشدبأساً من هذه الحفنة من الاسرائيليين، وأقوى من هذا التركيب المصطنع لأمة يهودية.

---

(٢) ثيوقراطي : كلمة من أصل يوناني معناها السلطة ذات المصدر الالهي .

يؤكد هذا قول المؤلف : « ومن كان يكنّ لليهود نية شريفة فإنه لا يستطيع أن يتمنى إلا التغلب على النزعة القومية ، والعودة الى جادة الصواب والتعقل ، والاقتصار على المهام الدينية » . وإنشاء دولة « إسرائيل » ، في نظر المؤلف ، يضر بالمصالح الحقيقية لليهودية نفسها .

وتعلو كلمات المؤلف حتى تصبح اتهامات قاسية مدعمة بالحجج والبراهين ، وحتى تصبح سهاماً طاعنة موجهة الى صدر الدولة الباغية . فهي دولة أقيمت على أساس من الظلم والدم المسفوك .. وهي تمثل تهديداً خطيراً ودائماً للسلام العالمي . وإذا كان المؤلف قد تصدى للقومية اليهودية ولدولة إسرائيل ، رغم أنه يعرف مسبقاً ما سوف يجر عليه هذا التصدي من انتقام عملاء الصهاينة ، فإنه لم يفعل ذلك إلا لحماية نفسه وحماية رفاقه في الانسانية ، كما ذكر المؤلف نفسه ، من شرور الصهاينة .

وقد لقي ما كتبه المؤلف بصدق وإخلاص صدى طيباً لدى اليهود الشرفاء في أرجاء العالم . فهذا يهودي ألماني يعيش في الولايات المتحدة كتب له يقول : « ... إن كثيراً مما في كتابك ليصدر عن قلبي وعن قلوب كثير من اليهود الآخرين : فأنت تعبر بدقة عما لا يجرؤ نحن على قوله خوفاً من الصهاينة الذين يتمتعون بالقوة اليوم ... » .

ويسوق الكاتب في مؤلفه كثيراً من أقوال زعماء سياسيين معروفين ، ونواب في البرلمان ، ورجال فكر ، وصحفيين ، متناثرة في كتابه ، وبعض هؤلاء من اليهود أو ممن كانوا يعطفون على اسرائيل ، تؤكد كلها وعي هؤلاء على حقيقة التعصب القومي الاسرائيلي ، وطبيعة اسرائيل العدوانية .

تقوم فكرة الكتاب الرئيسية على اساس أن الدعوة القومية الصهيونية

هي أخطر على اليهودية ذاتها وعلى اليهود أنفسهم من أية أخطار خارجية اخرى .

من هنا ينطلق المؤلف : إن هذه الدعوة القومية الصهيونية ، وهذا التجمع العشري ليهود العالم وفي دولة « اسرائيل » على أساس قومي مفتعل سيكون وبالاً آخر الأمر على يهود اسرائيل ويهود العالم أكثر من شيء آخر . وما جهود المؤلف في كتابه هذا سوى محاولة جادة ومخلصة لإثبات هذه الحقائق بإسلوب علمي محكم يستند إلى أرضية واقعية ، ويتميز بأصالة النظرة وعمق الفهم لحقيقة أهداف الصهيونية ونواياها ، وحقيقة أساليبها وطرقها . إنه يسبر أغوار الصهيونية من خـــلال عرض تاريخي ومنطقي متسلسل ، ويفضح الدعوة القومية الصهيونية ، ويعري القائمين عليها ، ويكشف حقيقة نواياهم والنتائج التي سيؤدي اليها تعصبهم الشوفيني الأحمق وصلفهم وغرورهم اللذان لا يطالهما صلف وغرور . ويورد المؤلف الاستشهاد تلو الاستشهاد مديناً الطغمة القومية المتعصبة من أقوال رجالها . من ذلك قول آحاد هاعام ، وهو أحد ابرز قادة الفكر الصهيوني : « ... سيسود شعبنا اليهودي كل الشعوب الأخرى .. إن اسرائيل هذه .. هي الأمة العليا التي تملك القدرة على التوسع .. وعلى أن تصبح سيدة العالم دون النظر بعين الاعتبار الى ما يمكن أن يكلف هذا الشعوب الأخرى .. الشعوب الأدنى مقاماً .. » .

لقد بلغت بهم الشوفينية والغرور حـــد اعتبار اليهود سادة العالم ، وحد المجاهرة والتبجح بهذا الرأي . انه منطق نازي جديد !

وهذا الصلف والغرور نجدها بدرجات حادة متفاوتة عند جميع المسؤولين الصهاينة والاسرائيليين . إنها ظاهرة عامة في الفكر الصهيوني ، لا بل صفة من أبرز صفات هذا الفكر .

. . .

إن « اسرائيل أمة مفتعلة » كتاب قيم ، يضم معلومات دقيقة وأفكاراً موضوعية صحيحة تستند الى أسس راسخة من الدقة والواقع. هذا الكتاب الذي كتبه قلم أوروبي حر استطاع الوصول الى لب الحقيقة .. الى جوهر الصهيونية وتعريتها وفضح وسائلها ، يستحق قراءة واعية واهتماماً جاداً من جميع مثقفينا ووسائل اعلامنا في الداخل والخارج . إنه يضيف الى معلوماتنا الكثير ، ولكنه بالنسبة للعقل الأوووبي اكثر من سند وأكثر من وثيقة علمية بقلم كاتب اوروبي متجرد . أنه سفير اعلامي لنا لدى العقل الاوربي الذي يقتنع بلغة العلم والمنطق .. لغة الحجة والبرهان .

# ثلج حنا الدافىء

نواف أبو الهيجاء

بعد «المصابيح الزرق»، أصدر الروائي حنا مينه روايته الثانية «الشراع والعاصفة» حيث شرح ابعاد الحركة الاجتماعية من خلال انعكاس اجواء الحرب العالمية الثانية على قطاعات وطبقات المجتمع العربي في «اللاذقية». شاهدنا الاندفاعات النضالية الفردية، او الجماعية غير المنظمة، ورأينا كيف بدأت تتوضح الخطوط الفاصلة بين الطبقات الاجتماعية، ورأينا كذلك بداية تلك الصراعات الطبقية وهي تتضح وتأخذ كامل ابعادها. وتأتي اليوم روايته الثالثة «الثلج يأتي من النافذة»[1] لتضيف إلى انتاجه الروائي رواية ممتعة، شيقة، ومعالجة جريئة لأحدى أهم قضايا النضال الثوري في مجتمعنا خلال حقبة هامة من تاريخه.

فماذا قال حنا مينه في «الثلج يأتي من النافذة»!؟

وكيف قال ما قاله !؟

---

(١) حنا مينه، الثلج يأتي من النافذة - رواية، مطبوعات وزارة الثقافة دمشق ١٩٦٩ (٣٧٢) صفحة

وهل نستطيع اعتبار هذه الرواية تتمة – فكرية – أو خلفية فكرية يسير على هديها هذا الروائي العربي !؟ أم هي عمل فني قائم لذاته ليست له أية علاقة بالروايتين السابقتين للمؤلف ذاته !؟

ربما كانت هذه هي أهم الاسئلة التي تخطر للقارىء قبل ، وربما بعد ، اتمام عملية قراءة الرواية . ومن حسن الحظ فـــإن القارىء يعثر على جميع الأجابات بسهولة ممتعة حقاً .

* * *

عملية تلخيص الرواية ، وهي العمل الفني المتكامل ، ضرب من الخيال الظالم ، ففيها يكمن الظلم الفادح للعمل الفني ، ولخالق العمل الفني ، وللقارىء ذاته أيضاً . لذا سألجأ هنا ، في محاولة فهم ابعاد الخطوط الأساسية للرواية ، إلى تحليل واف ، قـــدر المستطاع ، للشخصيات الرئيسية الثلاث في « الثلج يأتي من النافذة » .



آ – فياض :

« ها هو في بيروت الآن .. الطريق الطويل ليس طويلا ، وجدار المصاعب ليس عصياً . » (٢)

فياض ، كما نفهم ، في بيروت الآن ، ولكنه ليس لبنانيا . انه من سورية وجاء إلى بيروت ليختفي . لماذا !؟ لأنه هنا مطارد ، كما أنه جاء من دمشق هارباً من المطاردة ذاتها . إذن هو ثوري كما نفهم من سياق الرواية . وهو ليس ثوريا عادياً ، انه مثقف ، بل ويكتب . وهو«منفي على نحو ما »(٣) . وثمة عبارة

(٢) الثلج يأتي من النافذة : ص ( ١٥ )
(٣) المصدر ذاته : ص ( ١٦ )

تلخص قضيته وهذه العبارة جاءت في الصفحتين ١٦ — ١٧ من الرواية :

« علي ان احمل صليبي .. على الجدول ان يصب في النهر العظيم . »

في دمشق هو مطارد ، ورفاقه مطاردون ، وفي بيروت ، حيث الحرية مزعومة ، هو مطارد ورفاقه مطاردون ، والزمان بداية الخمسينات .

ومشكلة فياض ليست هنا . انها مشكلة أهم واكبر . وإذا كانت عملية الهروب من ساحة النضال الأولى إدانة له ، فهي ليست ابضاً المشكلة رقم (١) بالنسبة له . انما المشكلة الأساسية هي في : كيف يصب الجدول في النهر العظيم !؟

كيف يعمل !؟ وماذا يعمل !؟

انه يحمل فكراً ثورياً ، والقضية لا تكمن في حمل الفكر الثوري فحسب ، بل هي في ممارسة هذا الفكر الثوري . صحيح انه ملتزم ، وصحيح أنه مثقف ، وانه يحمل فكر الطبقة الثورية العاملة ، ولكن الصحيح أيضاً هو انه ينبغي عليه ان يعمل وفق هذا الفكر ـ أن يمارس الفكر الثوري لأنه كان ومازال يكتب هذا الفكر الثوري . وكان العامل الثوري خليل يتساءل دائماً :

« هل يكتب ما هو مستعد للتضحية في سبيله ، ام ان الكتابة لا تكلفه شيئاً في الوقت الحاضر ؟ » (٤)

عليه ، اذن ، ان يصمد ، ان يكون ذا نفس طويل ، طول نفس الطبقة الثورية ذاتها في استعدادها الدائم للتضحية ، في صبرها ، في نشاطها الدائم ، في حركتها التي لا تنتهي ، وفي ثقتها العجيبة بالنصر رغم جميع الانتكاسات التي تمنى بها .

فور وصوله يسجن في البيت ، ويعاني كثيراً . وتؤرقه مسألة البحث عن

---

(٤) المصدر ذاته : ص ( ٣٦ - ٣٧ )

عمل . ويعاني من العذاب . ورداً على تضوره وشكواه يقول له خليل العامل :

« لا تزعل مني .. تتعذب ؟ واضح .. كثيرون يتعذبون .. كثيرون يتركون اعمالهم ويتشردون ، يدخلون السجن ويخرجون ، وقد يدخلونه مرات ويخرجون .. ثم يفرطون بقضيتهم فما السبب ؟ فكر .. انهم يفتقرون إلى روح المثابرة ، ينقصهم الصمود أمام المصاعب الصغيرة ، احيانا .. التجربة هي المحك ، فقبل التجربة جميع الناس مناضلون ، وربما ابطال ! » في هذه الكلمات تكمن جميع أسس نجاح أو فشل تجربة المناضل الثوري . روح المثابرة ، والصبر تعنيان التخلص من النفس القصير – البورجوازي حتى لو كان هذا البورجوازي يحمل فكراً ثورياً .

ويخرج فياض إلى تجربة العمل الأولى .. العمل الجسدي – لا الكتابة ولكنه لا يستطيع الصمود امام الاهانات التي يتلقاها . للمرة الأولى يستطيع كشف القناع ، ويكتشف الحياة ، يكتشف ان الاعلانات واليافطات الخارجية لا تدل على المضمون . يكتشف انه لا يكفي لأن تدخل مطعماً مثلاً كتب عليه من الخارج « مطعم » حتى يكون المكان مطعماً فعلاً ، فثمة – قبو ، وثمة طابق آخر !! وامام الإهانة يترك عمله الأول . و « بيروت واسعة وبيروت ضيقة . فأين تذهب يا فياض ؟ حذار من المجازفـــة ، وحذار ان تركب موجة اليأس فترطمك على صخور التهلكة . نملةأنت بين هذا النمل . »[٥] والنملةمشهورة بدأبها ومثابرتها . على فياض إذن ان يعمل من جديد ، فالعمل هو محكه ، هو محك ثوريته ونفسه . والغش في كل مكان ، هنا ، وهناك – وعلى فياض ان يعرف طريقه . ويعود فياض إلى سجن نفسه من جديد ، ولكن هذه المرة في مكان

(٥) المصدر ذاته – ص (٨٠)

آخر : عند جوزيف . هناك يجد وسيلة للعمل – الكتابة من جديد – العمل الفني – القصة ! ولكنه رغم ذلك يجد ان لا بد من الحرية ، حتى وإن كانت هذه الحرية في نقل الاخشاب ، والحجارة . وهكذا يخوض التجربة العملية الثانية من جديد .

« يافياض ! يافياض ! ياحديدة القيت في النار ، اصمد ، ولسوف ينصهر المعدن »(٦) هل ينصهر المعدن ؟ هل ينجح فياض في اكتساب التجربة ، في ممارسة الفكر الذي يحمله ؟ ذلك الفكر الذي يعني : العمل الدؤوب ، العذاب، التحمل – الصمود ... الخ من الكلمات التي نعرفها جميعاً . وعاش فياض فترة كما يعيش العمال، اولئك الذين يناضل معهم وعن اجلهم ،ومن اجل مستقبل افضل له ولهم وللاجيال المقبلة . ولكن المطاردة مستمرة .

ويعمل فياض في مكان آخر ، عند بورجوازي صغير مريض لاأمل له الا هذه الآلة المتهالكة التي اشتراها لقص المسامير . آلة (ابو رو كز) . ويحبه ابو رو كزويعتبره جزءاً من مشاريعه المستقبلية الكبيرة . وأمام المطاردة يضطر فياض إلى ترك العمل ثانية والعودة الى السجن الاختياري . وهناك يكتشف فياض نفسه حقيقة :

« انت يافياض لاتفتح طريقاً ، لكنك تسير في طريق وعرة .. انت حجر ككل الحجارة التي رفضها البناؤون وصارت رؤوس زوايا .. امض في طريقك امض .. بدون زاد ، بدون مأوى ، بدون حب .. دع دينيز تحلم بالفارس كما في الكتب ، لانها لو رأتك في معمل المسامير لصاحت . « رباه ! إنه انسان عادي ! » دع والدتك في حنانها العاجز ، فانما والدك في ضلاله أكثر

(٦) المصدر ذاته ص (٢٠٣)

جراءة على الحياة منها ، واذ تستشعر الألم تذكر انك واحد من ملايين يتألمون مثلك ، يسيرون في الطرق الوعرة ليشقوا طرقاً جديدة» .(٧) وامام هذا الإدراك العميق لكينونته اضحى الطريق أمامه واضحاً كل الوضوح. النضال في كل مكان هو ذاته نضال من أجل سعادة الملايين .. ومن أجل إزالة الظلم الفادح الذي أصاب الملايين وبصيهم . امام هذا الادراك ؛ الذي جاء يزيد في وعيه وبعمقه نتيجة ممارسته العملية لفكره الثوري لايجد الا ان يعود إلى دمشق ..

أجل فالنضال في دمشق هو ذاته نضال في بيروت . وإذا كانت الإدانة في البداية مبررة فإنها الآن غير مبررة ولهذا فلقد عاد إلى دمشق :

« اغمض عينيه على هناءة الراحة بعد تعب . في مدينته سيعيش ، وفي مدينته سيكتب ، وفيها سيكافح .. وشعر بسعادة غامرة ، بسعادة من يستقبل الدنيا بصدره ، واعداءه بصدره ، واصدقاءه بصدره ايضاً ، وهتف كأنه يقسم :

— أبداً لن اهرب بعد الآن ! أبداً لن اهرب بعد الآن . »(٨)



ب — خليل

هو العامل ، الفقير ، الثوري الحقيقي . الإنسان الذي يتمتع ، بحكم انتمائه الطبقي ، وبحكم وعيه ، وممارسته ، والتزامه الثوري ، بقدرة الطبقة العاملة ذاتها على الجلد والمثابرة والمقدرة على الاستمرار في درب النضال حتى آخر الشوط : واكثر من ذلك ، نفهم ان لخليل هذا تاريخاً حافلاً بالاعمال الثورية . لنقرأ ماذا يذكر عنه فياض :

« خليل : ياخليل ! في حينا ذاك كنت المجنون الأول . كانوا يقولون

---

(٧) المصدر ذاته : ص ٣٤١

(٨) « « — ص ٣٧٢

هذا الولد يناطح الصخر ! قال سنديكا قال ! »[9]

ونرى خليل منذ البدء يحاكم فياض المثقف الكاتب . ونراه أيضاً يعمل في النقابة مكافحاً مع رفاقه من اجل الحصول على مكاسب اجتماعية واقتصادية وسياسية لهم . وفي البيت يكافح ضد سقطات الحركة الثورية وانعكاسات ذلك على العائلة .. الفقر والمطاردة ، وحكاية فياض ، و :

« خليل في نقطة الخطر من كل هذه القضية ، سيكون كذلك لأنه عضو في لجنة الإضراب ، ولانه مناضل . لقد تمرس بذلك حتى بات يرى الأشياء طبيعية مهما تكن قاسية .. خمسة وعشرون عاماً او اكثر ، من اجتماعات المغائر إلى اليوم ، فأي نفسه طويل وأي صبر ! »[10]

هكذا إذن هو خليل . مناضل عريق ، ثوري حقيقي .. يمارس مايفكر فيه ، ما يؤمن به ، ما يعتنقه من عقيدة ثورية ، وهو فوق هذا وذاك إنسان بكل معنى الكلمة ، ولعل حنا مينه وضعه هنا ليكون المثال الذي ينبغي لفياض ان يصبح مثله : صبوراً ، ممارساً حقيقياً للفكر الثوري الذي يحمله . تعود خليل الا يرضخ أمام الصعاب لأنه يثق بنفسه ، ويثق بعقيدته وبحتمية انتصارها لانها عقيدة الشغيلة والطبقات المحرومة .

وهو يعرف دائماً كيف يستشرف آفاقاً جديدة في عمله . وهو الذي يقول لفياض في آخر مواجهة :

« انت الذي اخترت هذا الطريق ، وما عليك إلا ان تواصل السير » .

---

(٩) المصدر ذاته : ص ٣٤٠

(١٠) المصدر ذاته : ص ٢٢٤

(١١) المصدر ذاته : ص ٣٦٣

### ج ـ جوزيف :

أما جوزيف فهو شخصية أخرى ، تختلف عن كل من فياض وخليل . هل هو ثوري ! ؟ فكراً وعملاً !؟ ام ماذا !؟

جوزيف هو الثوري فكراً ، وهو الانسان الذي لا يستطيع الخلاص من تطلعاته البورجوازية ، ولا من النفس البوارجوازي القصير . نفهم انه مثقف ، وانه يملك طاقات هائلة ، ولكنها مهدورة ، لاشيء الا لأنه لا يعرف شيئاً اسمه الصبر والمثابرة ، لأن نفسه قصير . وهو يمارس فكره الثوري الذي يحمله في ذات الوقت الذي يقفز في عمله هنـــا وهناك لتوفير الحاجات البورجوازية التي جاءت نتيجة اقترانه بزوجه البسيطة ، ولكي يجاري البورجوازية في مظاهر البذخ والحياة المرفهة بالدّين ! ـ

« فياض وجد طريقه . تخـــلى عن كل شيء في سبيل ان يكتب . . وخليل قاد اضراباً فاشلاً ولكنه سيقود اضرابات ناجحة ، أما انا ! ؟ . كان مستعداً ان يموت الآن ، في هذه اللحظة ولكن في هذه اللحظة لا سواها . »[1]

لماذا !؟ لانه يتمتع بنفس البورجوازية الوطنية الصغيرة . مشكلته إذن تكمن في إيجاد ذلك النفس الطويل الذي لن يوجد عنـده مادام لا يستطيع ان يمارس فكره الثوري ممارسة يومية ، حتى في علاقاته الاجتماعية وفي الاشيـــاء البسيطة التي تحدث له .

. . .

أهذه هي شخوص الرواية فقط ؟ كلا ، فثمة شخصيات اخرى تعمل على اتمام اللوحة مثل : ام خليل ، ام بشير ، ابو روكز وغيرهم . هؤلاء يضيفون

(١٢) المصدر ذاته : ص : (٣٠٨)

الألوان ويوضحونها أكثر،وجميع هؤلاء اناس طيبون ، جاء بهم حنا مينه كتحية للشعب اللبناني ، كاثبات مادي ملموس على طيبة هؤلاء الناس . حتى ابو روكز كان على استعداد لايواء خليل ، ولم يكن على استعداد لتسليمه لرجال الأمن . وام بشير جاهدت من أجله، كذلك ام خليل ، كذلك زوجة جوزيف. ويعطينا حنا صورة حية لواقع ـ الخبايا ـ الكامنة خلف اللافتات والمظاهر في بيروت. يرينا صوراً حية من حياة الخداع الرأسمالي ، ومن حياة البيع والشراء ، وكذلك من حياة الطبقة المسحوقة دائماً هناك .

* * *

كيف قال حنا مينه كل هذا !؟

في هذه الرواية لم يعمد حنا مينه الى التسجيل ، ولا الى كتابة السيرة الذاتية كما قد يخيل الى البعض لأول وهلة. في روايته السابقة « الشراع والعاصفة » كان يلجأ كثيراً الى التقرير لا سيما عندما يتحدث عن الاوضاع السياسية في البلاد زمن الحرب العالمية الثانية ، او عندما يتحدث عن احياء مدينة اللاذقية — أما في روايته هـذه — الثلج يأتي من النافذة — فلم يلجأ الى التقرير الا مرة او مرتين وبصورة فنية مقبولة .

رأيت حنا مينه في « الثلج يأتي من النافذة » اكثر حداثة مما كان عليه في « الشراع والعاصفة ». لقد نجح في استعماله السريع الفني للمنولوج ، وحتى الديالوج أما « الفلاش باكس[1] » التي عمد اليها في لحظات معينة فلقد كانت اقرب الى « تيار الوعي » الانسيابي منها الى « الفلاش باك ». أما اللغة فاعتقد ان الاعجاز في هذا

---

(١) « Flashback » اصطلاح يعني ومضة الاسترجاع يستعمل عادة في اللقطات السينمائية .

العمل يكمن في تلك اللغة البسيطة جداً والغنية جداً والتي لم نلحظ فيها أية محاولة للتصيد « الصوري » والتعبيري » ، لغة تنساب بهدوء وتعبر بهدوء وبوضوح .

شيء واحد آخذه على حنا مينه في « الحوار » . جاء حوار الشخصيات متشابهاً الى حد كبير ، اي ان القارىء لا يستطيع التمييز بين قولين لشخصيتين من خلال حوارهما .. ولعل هذه هي الهنة الوحيدة التي اسجلها على حنا في هذه الرواية . اذا ماقارنت ، كقارىء ، حوار « الثلج يأتي من النافذة » بحوار « الشراع والعاصفة » لوجدت تشابهاً غريباً ، لماذا !؟

اما الاجابات المطلوبة على التساؤلات المطروحة في البداية فأعتقد انها توضحت من خلال العرض السريع للشخوص .

وكلمة أخيرة اسوقها ، في هذه العجالة ، ان رواية « الثلج يأتي من النافذة » تضيف شيئاً جديداً الى عالم الرواية العربية ، شيئاً له قيمته الحضارية والفنية . وآمل ان لا اكون قد ظلمت الرواية من خلال عرضي السريع هذا لأنني لا اكتب نقداً بأية حال من الأحوال ، وانما اكتب دائماً في محاولة فهم فقط .

# دعــوة إلى السـينما

... وأزمة اصدار الكتب الفنية

عادل ابو شـنب



من بين الملامح البارزة لأزمة النشر في القطر العربي السوري .. غياب الكتاب الفني غياباً دائماً [1].

إن مانقرؤه من كتب تعالج قضايا فنية ، مستورد ، في الغالب ، من لبنان ومصر ، وهو لايحمل أية صفة محلية ، ولم يكن قط رد فعل لقضيـــة من قضايانا الفنية التي تستأهل أن يدور حولها نقاش ، أو أن تؤلف بسببها كتب .

إن أزمة نشر الكتب الفنية لصيقة الصلة ، في الأسباب والنتائج ، بأزمة النشـر عامة ، لكن في النهر ماءً قليلاً - كما يقولون - عندما يرد الى الأذهان موضـوع الكتب الأدبية والفكرية ، وليس فيه ماء قط إذا مافكرنا بالكتب الفنية ..

ولست أريد أن أعالج أسباب الأزمة ومظاهرها ، في هذا المقال ، وإنما

---

(١) في احدى الاحصائيات ان عشرة كتب فنية قد صدرت خلال السنوات العشر - مرحلة الستينات - في القطر . أكثر من نصفها اصدرته وزارة الثقافة خلال السنوات الثلاث الاولى من هذه الفترة .

كان استهلالاً لابد منه . أن أشير الى الأزمة ، وأنا بصدد التهليل لكتاب فني صدر في القطر[٢] بعد طول انتظار ، وبعد أن أصبح غياب الكتاب الفني قاعدة وحضوره استثناء .

إن مبادرة شخصية ، فردية ، حولت الكتاب المخطوطـــة الى وثيقة سينمائية مطروحة في السوق ، وقد تكون هذه المبادرة .. شجاعة ، لكنها ، في الوقت نفسه ، مأزق الجميـــع ، لمن يملكون نشر الكتب الفنية ولا يفعلون . للقراء الذين تعودوا على قراءة الكتب الفنية المستوردة . للناشر الذي غامر فنشر ، وأخيراً المؤلف الذي لايملك إلا معرفته بالفن الذي يكتب عنـه ، وشجاعته ، لأنها - أي المبادرة - تضع الملح على الجرح ، وتُروي القحط الذي تعاني منـه في هذا المجال ، فكأنها صيحة في واد .



**هدف الكتاب :**

قسم الاستاذ صلاح دهني[١] كتابه « دعوة الى السينما » الى خمسة عشر قسماً ، عالج فيها ما اذا كانت السينما فناً أم لا ؟ مسلياً أم ذا هدف ؟ وحدد فيها علاقة السينما بالمسرح والأدب والفكر ، وبيّن المسؤولية الاجتماعيـــة للسينما ، ولم ينس أن يتحدث عن المُشاهِد الذي يُعْتَبَرُ ، هو أولاً ، رأسمال السينما . وبطبيعة الحال .. وضع العرب أمام السينما .. في آخر اقسام الكتاب ، وهو الهدف الرئيسي الذي رمى اليـــه . وربما أدرك القراء من عنوان الكتاب هذا

---

(٢) « دعوة الى السينما » من منشورات مكتبة النوري - دمشق ( ١٩٢ صفحة من القطع المتوسط ) تأليف الاستاذ صلاح دهني .

(١) الأستاذ صلاح دهني مؤلف الكتاب . مخرج . ومدير الشؤون الفنية سابقاً في المؤسسة العامة للسينما بسورية .

المغزى الذي اراده المؤلف . لقد جعل نفسه داعيـــة لفن السينا الذي لم نكن نحن العرب قد استوعبناه كوسيلة إعلامية تخاطب أوسع القواعد ، وتتسلل الى جميـع أنماط البشر ، حتى الأميين . فدعوته الى السينا . . دعوة تعريف علمي بها وبدورها ، ودعوة الى الأخذ بيدها واعطائها دوراً اكبر في أقطارنا العربية ، وتحويلها إلى لغة نخاطب بها انفسنا ، ونخاطب بها العالم . وفي حـدود القطر . . الدعوة دعوة لمسؤوليه ومثقفيه وناسه للاهتمام بالسينامن جميع الوجوه : تصنيعها ، والاكثار من صالات العرض ، وانتاج المزيد من الأفلام ، وتطوير الثقـــافة السينائية لرفع مستوى الجمهور .

واذا كان هذا هو الهدف الرئيسي من الكتاب . . فالمؤلف لم يعطه فجاً ، وإنما أعطاه بعد عرض شبه تاريخي لفن السينا ، ولآراء كبار الكتاب فيـــه ، توصل بنا ، بنتيجته ، الى ان فن السينا هو « فن عظيم لأنـه أكمل فن جماهيري عرفه الانسان ، لا يوجه الى فئة ولا الى طبقة » (٢) .

## السينا والفنون الأخرى :

ومن أمتع اقسام الكتاب . . تلك التي تحدد العلاقة بين السينا والفنون الأخرى كالمسرح والأدب ، ولأن المؤلف سينائي ، شديد الحماسة لفنــــه الذي أعطاه حياته ، فقد غلب فن السينا على جميع الفنون الأخرى ، وجعله سيدها ، وخلاصتها جميعاً ، وإن كان يعترف بتأثيرات الأدب والمسرح فيـــه أحياناً ، مستشهداً بمقالة أحـــد الكتاب : « السينا هي أبي . انها تمنح الأدب دماً وأرجواناً (٣) » . لكنه يجعل تأثير السينا في الأدب والمسرح أكبر وأعمق .

---

(٢) صفحة – ٨٢ –

(٣) صفحة – ٨٦ –

**اجتماعية السينما :**

يقول الاستاذ دهني في كتابه : في السينما إذن تحققت المساواة بين البشر ، وتقاربت أفكارهم ، وأصبحت السدود المنيعة التي كانت تفصل مابينهم .. كرتونية هزيلة (١) » .

ويقول : « والفيلم يجمع الاندفاعات والرغبات والأفراح وحماسات الجماهير ، عندما تتحد هذه الجماهير ، وهو يحقق في مدى ثوان ، أو دقائق ، أو ساعة ، اشتراك مجموعة من الناس في عاطفة من نوع واحد (٢) » .

ومع أن فكرة اجتماعية السينما ليست جديدة ، كتب فيها ، من قبل عشرات الكتاب والنقاد ، فإن التأكيد عليها في « دعوة الى السينما » يعطي الكتاب نكهة متميزة لشموله ، ولطموحه لاحتضان جميع هموم السينما ، ذلك أن اهمال الدور الاجتماعي للسينما ـ وهو مالم يحصل في الكتاب ـ يفقد السينما خاصيتها الأولى : جماهيريتها ، ويجردها من أهم أدوارها وأخطرها . ولعل المبرر الأول لكتابة هذا الكتاب ونشره هو جر الفكر العربي الحديث الى الانتباه الحاسم الى خطر السينما من الزاوية الاجتماعية .

* * *

إن الحديث في اقسام الكتاب قد يفقدها حرارتها التي لايمكن لقارىء أن يلمسها إلا بقراءة متكاملة . فإذا اكتفينا بهذا التلخيص السريع وجدنا أنفسنا أمام ملاحظة هامة نسوقها فيما يلي :

---

(١) صفحة – ٩٦ –

(٢) صفحة – ١١٢ –

ان الحجم الذي خصصه المؤلف من كتابه للدراسات السينائية المستنبطة من واقعنا المحلي ، داخل القطر ، أقل مما كان متوقعاً ، وعلى العكس .. كان الحجم المكرس للدراسة النظرية ، ان صح التعبير ، هو الأكبر . وربما اعوزت المؤلف الوثائق والاحصائيات التي لابد منها ، والتي لاوجود لها أصلا (٣) ، أو ربما خشي أن يقوده بحث الارقام والاحصائيات إلى جفاف لايريده لكتابه .

وفي جميع الأحوال .. يظل هذا الكتاب الهام ، الذي بزغ في السوق المحلية كنجم مفتقد .. من أهم الكتب التي تسد ، بظهورها، فراغاً في المكتبة العربية ، وتنبه الى اهمية السينا ، فناً وصناعة ، ووسيلة اعلامية شديدة النفوذ ، في حياتنا المعاصرة التي تتحكم فيها التكنولوجيا والآلية .



(٣) ثمة احصائيات اليونسكو ، واحصائيات لمركز التنسيق العربي عن السينا في سورية ، واغلب هذه الاحصائيات مصدرها المؤلف الذي له صلة بمراكز السينا ومؤسساتها .

## مؤتمر الآثار الكلاسيكية التاسع :

ستنشر مجلة (المعرفة) في العدد القادم دراسة طويلة عن المؤتمر الدولي التاسع للآثار الكلاسيكية الذي أقيم في دمشق ( ١١ - ٢٠ تشرين الأول « أكتوبر » المنصرم ) . ضم المؤتمر أكثر من ٣٥٠ عالماً يمثلون حوالي ٦٠ مؤسسة علمية من بينها :



الاكاديمية البولونية ، أكاديمية العلوم في النمسا ، الكوليج دي فرانس ، أكاديمية الكتابات والآداب في فرنسا ، الأكاديمية الأمريكية في روما ، المعهد الفرنسي للآثار في بيروت ، معاهد الآثار في أثينا وجامعة لندن والسوربون وألمانيا الديمقراطية ، مركز آثار البحر المتوسط في بولونيا ، المعهد السويسري في روما ، معهد أمريكا الأثري ، المتحف الوطني في الدانمارك ، متحف اللوفر ، متحف كيلسي في جامعة ميشيغان الأمريكية ، جمعية الاستشراق في ألمانيا الاتحادية ، جمعية النحتيات الأمريكية ، الجمعية الأثرية في أثينا ، جمعية الدراسات السالونيكية في اليونان .

وفي الخطاب الذي افتتح به وزير الثقافة باسم رئيس الدولة العربية السورية هذا المؤتمر ، قال الوزير :

« اننا برغم الظروف التي نعيش شروطها بمرارة وقسوة ، وبرغم وجود العدوان واستمراره فوق ترابنا العزيز ، وبرغم التهديدات الكبيرة التي تلحق بنا كل يوم والتي تستهدف وجودنا كأمة ... فاننا نصر ، وبحزم وعزم وتصميم، على أن نتابع مسيرتنا الحضارية فنبني انساننا العربي الجديد، بناء الانسان الجديد في كل ما لهذه الكلمة من معان ، فنؤكد مرة أخرى للعالم أن دور العروبة في بناء الحضارة لما ينته ولن ينتهي .. وسوف نعلّم هذا الانسان كيف يعمر بيد ويدافع باليد الأخرى » .

« ان بلداً ، ظل طوال خمسة آلاف عام حلقة أساسية في الوصل بين الحضارات ، وواجهة مشرقة على البحر الأبيض المتوسط ، وقلب العالم القديم والحديث ، بلداً تعايشت فوق تربته الديانات ، وتفاعلت فيه الثقافات ، لهو بلد يحمل رسالة خالدة في تقاليد التسامح والتفاعل والتفهم المتبادل والايمان بمُثُل الانسانية العليا : الحق والخير والجمال » .

« ولقد حرصنا على صيانة هذا التراث الحضاري وإغنائه ، لأن اعتقادنا الراسخ هو أن هذا كله ليس لنا وحدنا بل للانسانية جميعها . ونحن مقتنعون ، تماماً بأن أي عدوان يقع على أي أثر حضاري ، هو عدوان على الحضارة كلها ، بل هو موجه ضد الانسانية جمعاء » .

وقال رئيس المؤتمر المدير العام للآثار والمتاحف :

« ان المؤتمر الدولي التاسع للآثار الكلاسيكية يتسم بطابع متميز يعطيه ألواناً تزيد في تطوير هذه المؤتمرات وتجديدها . وهو أول مؤتمر دولي

للآثار الكلاسيكية ينعقد خارج نطاق اوروبا يجمع شمل العلماء من أساطين المؤرخين وقمم الأثريين من مختلف الجنسيات واللغات والديار ، كما أنه أول مؤتمر دولي للآثار يتصدى لموضوع رئيسي يعتبر من أجل الموضوعات الأثرية التاريخية وأكثرها شأناً في فهم تطور الحضارة الانسانية وتتبع مسارها ونموها في عهود وفترات هامة من عهود التاريخ البشري الطويل ».

وقال الأستاذ ( بول كولار ) أمين السر العام للرابطة الدولية للآثار الكلاسيكية :

« تبدو لنا سورية منذ أبعد العصور أرض تلاق للحضارات ، ويؤهلها لذلك موقعها الجغرافي ، فهي بوقوعها في نقطة التقاء القارات الثلاث بين وادي النيل ووادي الفرات وحوض البحر المتوسط شهدت نشوء وازدهار أقدم الحضارات. كما أن الطرق التي تربط بين هذه المناطق من العالم القديم تمر وتتصالب حتماً فوق أرضها ، فلابد من عبورها من الطرف الى الطرف الآخر للانتقال من الشرق الى الغرب ومن آسيا الصغرى الى افريقيا . وكانت سورية مرات عديدة عبر العصور التاريخية مسرحاً لهجرات الشعوب ، تلك الهجرات التي لم تكن دوماً بالضرورة هجرات غزو وفتوح » .

عالج المؤتمر المواضيع الرئيسية التالية :

١ - التأثيرات المتبادلة بين الشرق والغرب في العهد الكلاسيكي .

٢ - التنقيبات الأثرية الكلاسيكية في القطر العربي السوري وفي بلدان الشرق الأدنى .

٣ - العمارة الكلاسيكية ومعضلاتها في الشرق الأدنى .

٤ - أثر النزعة الكلاسيكية في العالمين البيزنطي والاسلامي .

بيّن العالم الايطالي ( رانو كسيو بيانشي باديبلي ) في محاضرته عن (التأثيرات المتبادلة بين الشرق والغرب في العهدين الهليني والروماني ) أن فن العمارة في الغرب تبنى الأشكال الجديدة التي نشأت وتطورت في الشرق ، في هذين العهدين . فقد انتقلت بنية فن الشرق ، رغم الزخرفة المختلفة التي كسا بها فن الغرب هذه البنية . ذلك أن فن العمارة يرتبط بارادة الجماعات القائدة في المجتمع ، ولا تتبع اليد العاملة تقليداً معيناً إلا في تنفيذ الفنون التشكيلية .

وأضاف العالم الفرنسي ( أماندري ) أن أواني السيراميك الرودسية ، في القرن السابع قبل الميلاد ، كانت متأثرة بالفن السوري .

وذكر العالم البلجيكي ( جان شارل بالتي ) ان الحفريات الأخيرة تدل على أن مدينة ( أفاميا ) السورية سكنت بين سنة ( ٥٠٠٠٠ - ٣٢٠٠٠ ) قبل الميلاد .



**نشيد الشباب العربي :**

نظمت جامعة الدول العربية مسابقة لإعداد نشيد للشباب العربي ، لالقائه في المهرجانات والاحتفالات والدورات الرياضية ومخيمات الشبيبة المحلية والعربية والدولية . ويشترط في هذا النشيد أن يكون صادق التعبير عن معاني العروبة وأصالتها وآمال الشعب العربي واعتزازه بأمته العربية وقيمها ، وأن يؤكد الترابط والأخوة العربية ، وأن يكون بسيط العبارة سهل الفهم والاستيعاب والانشاد والترنيم ، مع الصحة اللغوية والسلاسة في النطق ، وأن يتكون من بحور قصيرة تتوافر لحروفها وكلماتها الطواعية الكاملة للموسيقا الجماعية والايقاع الجماعي ، وان يتكون من عدد قليل من المقاطع الصغيرة .

ستمنح جائزة لصاحب النشيد الفائز قدرها ٣٠٠٠ جنيه مصري ، ويجوز للجنة التحكيم أن تقترح منح مكافأة تشجيعية لنشيدين آخرين .

## الذكرى الخامسة لمصرع فان تروي :

صادف ١٥ تشرين الأول ( أكتوبر ) الماضي ، الذكرى الخامسة لمصرع البطل الفيتنامي نجوين فان تروي . ولد هذا البطل الشهيد في أول شباط ( فبراير ) ١٩٤٠ في فيتنام الوسطى . وكان أبوه عضواً في المقاومة ، وتبعه الى سايجون لمواصلة نشاطه الثوري . وفي أيار ( مايو ) ١٩٦٤ قرر ماكنمارا - وزير الدفاع الامريكي آنذاك - زيارة سايجون حاملاً مخططاته الرامية الى توسيع نطاق الحرب في فيتنام الجنوبية . فوافقت منظمة تحرير فيتنام الجنوبية على الخطة التي وضعها تروي لنسف جسر ( كونج لي ) الذي سيمر فوقه ماكنمارا في طريقه من مطار ( تان سون نهوت ) الى سايجون ، وأصر تروي على أن يقوم بنفسه بتنفيذ الخطة ، رغم ان زواجه كان سيتم بعد أيام قليلة ، ورهن خاتم زواجه لشراء السلك الكهربائي اللازم لتمديدات المتفجرات . لكنه وقع في ايدي العدو عندما كان على وشك تنفيذ الخطة في ٩ أيار وتعرض لأقسى أنواع التعذيب للبوح بأسماء رفاقه ، غير أنه تحمل مسؤولية العمل وحده . وحاول أن يهرب من سجنه ليواصل النضال ، وقفز من الطابق الثاني في مبنى ادارة الشرطة ، لكنه سقط على سيارة منطلقة في الشارع في تلك اللحظة ، فكسرت ساقه ، وأعيد الى السجن والتعذيب حتى اصيب كل جسده بالشلل . وفي ١٠ آب ( أغسطس ) حكم عليه بالاعدام ، وتقرر اعدامه في اوائل تشرين الأول . ولكن جبهة التحرير الوطنية الفنزويلية ، اعتقلت المقدم الأمريكي سمولين في قلب كاراكاس ، وأعلنت

أنه سيموت بعد ساعة واحدة من اعدام تروي . فأجل تنفيذ حكم الاعدام الى أجل غير مسمى ، وفي ١٤ تشرين الأول أطلقت جبهة تحرير فنزويلا الوطنية سراح سمولين وفي اليوم التالي أعدم نجوين فان تروي . ومنحه مجلس رئاسة اللجنة المركزية للجبهة الوطنية لتحرير فيتنام الجنوبية ، لقب « بطل » ووسام « الحصن النحاسي » من الدرجة الأولى .







يجري سحب الاصدار العادي التاسع بتاريخ ٤ تشرين الثاني ١٩٦٩

# الفهرس